



المبحث الأول

الاستعداد الفطري

اكتساب أي ملكة أو مهارة يقتضي وجود قابلية واستعداد لاكتسابها، ولاكتساب ملكة الفقه ثلاثة جوانب من الاستعداد الفطري نجدها عند الفقهاء، هي:

- الذكاء الفطري، الذي يستطيع به الفهم بيسر.
- واعتدال الطبع، ليكون صاحبه وسطاً بين الجفاء والغلو.
- والميل والرغبة الدافعة.

فالذكاء مع اعتدال الطبع هما القدرة المُمكِّنة من الفعل، والميل والرغبة هي الإرادة السائقة إليه، و«القدرة الكاملة مع الإرادة التامة تستلزم وجود المراد المقذور»^(١) بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى، و«الإنسان مندوب إلى استعاذته بالله تعالى من العجز والكسل»^(٢)؛

(١) أحكام أهل الذمة (٢/١٠٢٢).

(٢) عن أنس رضي الله عنه في قصة غزوة خيبر قال: كنت أخدم رسول الله كلما نزل، فكنت أسمعه يكثر أن يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال» رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال، برقم (٦٣٦٣).

فالعجز عن القدرة، والكسل عن الإرادة، فالعاجز لا يستطيع، والكسلان لا يريد»^(١)، ولنبحث ذلك في مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: الذكاء.

المطلب الثاني: الطبيعة المعتدلة.

المطلب الثالث: الرغبة في اكتساب الملكة الفقهية.

المطلب الأول: الذكاء:

والكلام فيه في فروع خمسة:

الفرع الأول: التعريف بالذكاء.

الفرع الثاني: حاجة طالب الفقه إلى الذكاء.

الفرع الثالث: أنواع الذكاء.

الفرع الرابع: القدر المكتسب من الذكاء.

الفرع الخامس: العمل عند نقص الذكاء الفطري.

الفرع الأول: التعريف بالذكاء:

«الذال والكاف والحرف المعتل أصل واحد مطرد منقاس، يدل

على حدة في الشيء ونفاذ»^(٢)، يقال:

ذَكَتِ النار تذكو: اشتعلت واشتد لهبها، والذَّكاء: قوة الرائحة،

يقال: مسك ذكي، والتذكية: الذبح، وذُكاء: اسمٌ للشمس، ويقال

(١) أعلام الموقعين (٥/٣٠٤) باختصار يسير، وانظر: زاد المعاد (٢/٣٢٦).

(٢) مقاييس اللغة (ذكا) (٢/٣٥٧).

للصبح: ابن ذُكاء، والذكاء: حدة القلب وسرعة الفطنة، وضده
البلادة، يقال: رجل ذكي، وقلب ذكي^(١).

وفي الاستعمال العلمي، عُرف الذكاء بأنه: سرعة الإدراك وحدة
الفهم^(٢).

وعرف مجمع اللغة العربية في القاهرة الذكاء بأنه: قدرة على
التحليل والتركيب والتمييز والاختيار وعلى التكيف إزاء المواقف
المختلفة^(٣).

وأما في علم النفس، وهو الحقل الذي ينتمي إليه البحث في
موضوع الذكاء، فمع العناية البالغة بالذكاء تحليلاً وقياساً وتأملاً
ومناقشة سنين طويلة، من رجال التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع
والوراثة، فإنه لا يوجد اتفاق على طبيعة الذكاء، فليس هناك رؤية متفق
عليها لمفهومه ومعناه؛ فالوضع بالنسبة لتعريف الذكاء ما زال كما كان
عليه قبل ثمانين عاماً تقريباً!^(٤)

وقد يرجع هذا الاختلاف في تعريف الذكاء إلى طبيعة الذكاء،
فالذكاء ليس شيئاً محسوساً، كما أنه لا يقاس مباشرة، كما أنه واسع

(١) انظر: أساس البلاغة (ذكي) (١١/٣١٥)، الصحاح (ذكا) (٦/٢٣٤٦)، (ب ل د) (٢/٤٤٩)، مقاييس اللغة (ذكا) (٢/٣٥٧)، لسان العرب (ذكا) (١٤/٢٨٨).

(٢) المفردات ص ٣٣٠، والتوقيف على مهمات التعاريف ص ١٧١، وانظر: الكليات ص ٤٥٦.

(٣) المعجم الوسيط (١/٣١٤).

(٤) انظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٥٥، الذكاء المتعدد ص ١٩، الذكاء المتعدد في غرفة الصف ص ٣٨-٥٢.

المجال، فنشاط العقل وقدراته المتنوعة يصعب ضبطها بتعريف جامع^(١)، وقد يرجع هذا الاختلاف إلى تعدد الزوايا والمنطلقات ومناهج البحث التي نظر منها الباحثون:

فقد نهج فريق منهم منهجاً فلسفياً في التعرف على الذكاء، يقوم على التأمل العقلي، وذلك بملاحظة الفيلسوف لنفسه أثناء تفكيره، ثم تدوينه لملاحظاته الذاتية بعد ذلك.

ونهج فريق آخر في تعريف الذكاء منهجاً بيولوجياً، بأن حاول تفسير الذكاء تفسيراً فسيولوجياً، بالنظر إلى الذكاء بصفته نشاطاً من أنشطة الجهاز العصبي، ففسر الذكاء بالوصلات أو الروابط العصبية التي تصل بين خلايا المخ فتؤلف منها شبكة متصلة، ويقدر عدد هذه الروابط يكون ذكاء الإنسان.

وفريق آخر فسر الذكاء تفسيراً اجتماعياً، فقد عرّف الذكاء بالقدرة على التكيف والتوافق مع متغيرات المجتمع والبيئة.

وهناك اتجاهات أخرى، فاتجاه يُعرف الذكاء بالقدرة على التعلم، وآخر يُعرف بالقدرة على التكيف، وثالثٌ بالقدرة على التفكير، ورابعٌ بأنه القدرة على الأداء الجيد في اختبارات الذكاء!^(٢)

ولكثرة التعريفات والاتجاهات في هذا المقام، سلك بعض

(١) انظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٥٥، الذكاء المتعدد في غرفة الصف ص ٣٨-٥٢، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٧٨.

(٢) انظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٥٥-٦٣، الذكاء المتعدد ص ١٧-١٨، الذكاء المتعدد في غرفة الصف ص ٣٨-٣٩، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٧٧-٧٨.

الباحثين في التعريف بالذكاء مسلك الجمع بين التعريفات، فليخص الأفكار التي تضمنتها في محاور ستة، هي:

١ - التكيّف: أي أن الذكاء يتضمن قدرة المرء على تعديل سلوكه كي يتمكن من إنجاز مهمات جديدة.

٢ - القدرة على التعلم: فالأذكياء يستطيعون التعلم وبسرعة.

٣ - الذكاء مرتبط بالثقافة: أي أن الذكاء وصف نسبي، فالسلوك الذكي في ثقافة ما قد لا يكون ذكياً في ثقافة أخرى.

٤ - جودة توظيف المعرفة السابقة لتحليل المواقف الجديدة والعمل على استيعابها.

٥ - التنسيق: فالذكاء يُمكن من التفاعل والربط بين مجموعة متباينة من العمليات العقلية المعقدة.

٦ - سعة المجال: فالذكاء واسع المجال، فهو يحضر في مواقف ومجالات متعددة، وهذا ما يُعبر عنه بـ(أنواع الذكاء)، فليس الذكاء مقتصرًا على الذكاء المنطقي الرياضي، الذي يظهر أثره غالباً في التفوق الدراسي، بل هناك ذكاء اجتماعي وذكاء عاطفي وذكاء بيئي...^(١)

الفرع الثاني: حاجة طالب الفقه إلى الذكاء:

الفقه عمل عقلي يعتمد الفهم والاستنباط والاستدلال والترجيح، وتلك أعمال لا يقدر عليها -فضلاً عن أن تكون ملكات له- إلا ذهن ذكي صحيح.

(١) انظر: الذكاء المتعدد في غرفة الصف ص ٤٠.

يقول الشافعي رحمته الله: «الطبع أرض، والعلم بذرة، ولا يكون العلم إلا بالطلب، فإذا كان الطبع قابلاً زكاً ريع العلم، وتفرعت معانيه»^(١).

ويقول أبو هلال العسكري: «الفهم إنما يكون مع اعتدال آتته، فإذا عدم الاعتدال لم يكن قبول؛ كالطينة إذا كانت يابسة أو منحلة لم تقبل الختم»^(٢).

وقال الفراء: «إني لأرحم رجلين: بليداً يطلب، وذكياً لا يطلب!»^(٣).
وقد قيل^(٤):

رأيت العقل عقليين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع
ولذا صرح الأصوليون بأن من شرط المجتهد أن يكون ذا قريحة^(٥)،
ذكي الفؤاد جيد الملاحظة رصين الفكر صحيح التصرف، أخا فطنة
وذكاء؛ ليصل بذلك إلى معرفة المسكوت عنه من أمارات المنطوق،
ويقتدر على استنتاج الأحكام من مأخذها^(٦).

(١) الفقيه والمتفقه (٢/١٨٩).

(٢) الحث على طلب العلم ص ٤٧.

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/١٨٨)، جامع بيان العلم وفضله (١/١٠٣).

(٤) أدب الدنيا والدين ص ٢٩، إحياء علوم الدين (١/٣١٥).

(٥) القريحة في الأصل: أول ما يستنبط من البئر، ومنه قولهم: فلان قريحة جيدة، يراد استنباط العلم بجودة الطبع. انظر: الصحاح (١/٣٩٦).

(٦) انظر: التقرير والتحجير (٣/٢٩١)، الفكر السامي ص ٧٣٠، الفقيه والمتفقه (٢/٣٣٢-٣٣٣).

(٣٣٣)، أدب القاضي للماوردي (١/٤٩٢)، المجموع (١/٩٥)، البحر المحيط (٦/١٩٩).

(١٩٩)، شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع مع حاشية العطار (٢/٤٢١)،

المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٣٧٣.

ومن شعر أبي المعالي الجويني رحمته الله:

أصيخ! لن تنال العلم إلا بسة سأنبئك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص وافتقار وغربة وتلقين أستاذ وطول زمان^(١)

ويشير علماء النفس التربوي إلى مكانة (الذكاء) في اكتساب الملكة حين يعدّون (النضج) أحد شروط التعلم، ويُقصد بالنضج: التغيرات الداخلية في المتعلم التي ترجع إلى تكوينه الفسيولوجي والعضوي، وبخاصة الجهاز العصبي، فالنضج في كافة جوانبه عامل مؤثر في التعلم؛ لأنه يحدد إمكانيات المتعلم ومدى ما يستطيع اكتسابه من مهارة وخبرة، فالمهارات التي تعتمد على أنماط السلوك الناضجة يسهل تعلمها أكثر من غيرها، بل إن التدريب الذي يتلقاه المتعلم قبل النضج قد يحدث آثاراً ضارة إذا صاحبه الإحباط^(٢).

ولذا يرى الدكتور محمد عثمان شبير أنه «لا بد من اختيار أعلى المستويات العقلية والذهنية لدراسة الفقه الإسلامي... ويُراعى في اختيار هؤلاء الأذكياء أن يكونوا ذوي عزائم قوية ومواهب فطرية تتعلق بدراسة الفقه الإسلامي، ولا يُكتفى في اختيارهم على شهاداتهم التي تُثبت درجاتهم في المواد التي يدرسونها، بل لا بد من اختبار لقياس القدرات والإمكانات والمواهب»^(٣).

(١) الوافي بالوفيات (١١٨/١٩)، طبقات الشافعية الكبرى (٢٠٨/٥).

(٢) انظر: علم النفس التربوي ص ٤٢٥-٤٣١، سيكولوجية المهارات ص ٨٣، علم النفس التربوي الأسس النظرية والتطبيقات العملية ص ٧٠، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٣٣٧، تعليم التفكير ومهاراته ص ٢٨٠، المرجع في تربية الموهوبين ص ٤٠٧.

(٣) تكوين الملكة الفقهية ص ٤٤.

ومع التأكيد على شأن الذكاء وأثره في اكتساب الملكة فلا بد من الاحتراز من الشطط في ذلك، بتوهم أن الفقه لا يناله إلا العباقرة وأذكياء العالم كابن عباس والشافعي وابن تيمية ونظرائهم، بل الحق أن الفقه رُتّب، وكلما علت رتبة المرء في الذكاء والفهم كان مؤهلاً لبلوغ المراتب العلا، لكن نزول رتبته لا يعني خروجه من دائرة الصلاحية، والنظر في مراتب الفقهاء والمفتين من حيث تفاوت رتبهم في الفقه مع اجتماعهم في صفة الفقه وحمل الإرث النبوي مقنع بهذا.

وقد ضرب الله تعالى للقلوب واتساعها لعلم الوحي بتفاوت الأودية في احتمالها لما ينزل من الماء فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾^(١)، قال ابن القيم رحمته الله: «شبه العلم بالماء النازل من السماء، والقلوب في سعتها وضيقها بالأودية: فقلب كبير واسع يسع علماً كثيراً كوادٍ كبير واسع يسع ماءً كثيراً، وقلب صغير ضيق يسع علماً قليلاً كوادٍ صغير ضيق يسع ماءً قليلاً»^(٢).

والواقع شاهد بأنه قد نبغ في كثير من الفنون أناس لم يكونوا في أعلى درجات الذكاء، بل كانوا وسطاً في الذكاء، لكنهم أعينوا -إلى ذكائهم- بالجد والصبر^(٣)، فالطالب الصادق قد يسبق من فوقه في الذكاء إذا أعين بالصبر والمداومة على الطلب، ف«قد يقوى العقل وتقل الملكة؛ لعدم الاشتغال وقلة الممارسة، وقد تقوى الملكة مع ضعف

(١) سورة الرعد، الآية (١٧).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٧٨).

(٣) يقول أديسون (مخترع المصباح الكهربائي): الذكاء والعبقرية ١٪ منه إلهام، و ٩٩٪ عرق وجهد وكفاح. انظر: لمحات عامة في التفكير الإبداعي ص ٣٤.

العقل لشدة الممارسة وطولها»^(١)؛ «فالذكاء العالي -ولكن ليس الأعلى، مقروناً بدرجة كبيرة من المثابرة، يحقق تفوقاً أكبر من درجة الذكاء العليا مقروناً بقليل من المثابرة»^(٢)، فلأن يهب الله تعالى طالب العلم صبراً خيراً له من أن يمنحه ذكاء خارقاً لا صبر معه؛ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(٣)! فصابراً وسط في الذكاء أحرى بالنجح من ذكي لا صبر له، وما أكثر الأذكياء المحرومين بركة ذكائهم.

وكثيراً ما يظن بعض الطالبين في أنفسهم نقص الذكاء حتى يصرفهم ذلك عن الطلب، ولا يكونوا في الحقيقة قاصرين في ذكائهم ولكن البلاء أتى من سوءٍ في طريقة التعلم والتعليم، وسيأتي لهذا العائق بسط إن شاء الله^(٤).

الفرع الثالث: أنواع الذكاء:

إذا تقرر توقف نبيل الملكة الفقهية على وجود الذكاء الفطري الذي يكون به المتعلم متأهلاً لاكتساب الملكة، فمن المفيد هنا الوقوف عند ما أشارت إليه الدراسات النفسية الحديثة من وجود أنواع متعددة من

(١) القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم ص ٣٢٢.

(٢) المرجع في تربية الموهوبين ص ٤١٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة، برقم (١٤٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، برقم (١٠٥٣)، من حديث أبي سعيد

الخدري رضي الله عنه.

(٤) ذلك في الفصل الثالث تحت عنوان (عوائق شائعة في تعلم الفقه وتعليمه).

الذكاء عند البشر، ثم محاولة الاستفادة من هذه النظرية في موضوع اكتساب الملكة الفقهية، وسيكون ذلك -إن شاء الله- في مسألتين:

المسألة الأولى: نظرية تعدد الذكاء.

المسألة الثانية: الاستفادة من نظرية تعدد الذكاء في تكوين ملكة

الفقه.

المسألة الأولى: نظرية تعدد الذكاء^(١):

كانت النظرة القديمة نحو الذكاء لدى الباحثين في علم النفس تنحصر في قياس الذكاء بما لدى المرء من قدرة عقلية رياضية ولغوية، لكن ملاحظة المختصين لعدد من الظواهر قادتهم إلى إعادة النظر في هذا التصور: فقد فشل عدد من الموهوبين في امتحانات الذكاء ثم برزوا بعد ذلك في مجالات كثيرة من الذكاء، كما أن كثيراً من الحائزين على درجات عالية في تحصيلهم الدراسي أو في اختبارات الذكاء لم يحققوا فيما بعد نجاحاً متميزاً في حياتهم العملية، وأوضحت البحوث أيضاً: أن الطلبة مختلفون في عقولهم، وأنهم يتعلمون ويستذكرون ويفهمون بطرق مختلفة، وأوضحت: الدماغ يتألف من مواضع عدة، يختص كلٌّ منها بعمليات عقلية مستقلة، وقد يعرض لهذا

(١) انظر: الذكاءات المتعددة ص ١٠٦-١١١، الذكاء المتعدد أنشطة عملية ودروس تطبيقية ص ٥١-١٦٤، الذكاء المتعدد في غرفة الصف النظرية والتطبيق ص ٩٨-١٠١، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٩١-٩٥، علم النفس التربوي الأسس النظرية والتطبيقات العملية ص ١١٩-١٦٤، استراتيجيات التدريس في القرن الحادي والعشرين ص ٢٥٣-٢٥٦، المرجع في تربية الموهوبين ص ١٣٣.

الموضع تلف أو ضعف فتتأثر وظيفة هذا الموضع دون غيرها من وظائف الدماغ.

وهذا ما دفع (هاوارد جاردنر) في طائفة من علماء النفس إلى توسيع مفهوم الذكاء؛ ليشمل القدرات العقلية كافة، وليكون الذكاء مجموعة من القدرات المستقل بعضها عن بعض.

فقد رأى جاردنر أن اختبارات الذكاء الحالية هي اختبارات لغوية ومنطقية، وهي لا تغطي جميع الذكاءات الموجودة عند كل فرد، وقرر أن كل شخص يملك عدداً من أنواع الذكاء، وليس نوعاً واحداً، وأن الطلبة يتعملون تعلماً أفضل إذا كان التعليم ملائماً لما يملكونه من ذكاء، وهذه الرؤية حوّلت السؤال الشائع: إلى أي حد أنت ذكي؟ إلى: في أي مجال أنت ذكي؟

فقد أبرز جاردنر ثمانية أنواع من الذكاء، تاركاً الباب مفتوحاً للزيادة عليها، والأنواع الثمانية هي:

١ - الذكاء اللغوي:

وهو القدرة العالية والدقيقة على فهم اللغة والتعبير بها.

فالذكاء اللغوي يتضمن البلاغة في التعبير والتفنن في استخدام المفردات وصياغة الجمل، كما يتضمن سهولة الاستيعاب الفهم عن طريق السماع والقراءة، فصاحب الذكاء اللغوي يتعلم كثيراً بطريق اللغة، ويتضمن أيضاً قوّة التذكر، فاللغة أداة لحفظ المعلومات والتواريخ.

ويظهر هذا الذكاء لدى الكُتاب والمؤلفين والخطباء والشعراء والمعلمين والمحامين والممثلين.

ويمكن لمس هذا النوع من الذكاء في الطالب إذا كان سريع الحفظ، أو محبا للتحدث، أو له رغبة في الاستماع إلى الأحاديث والمواد الصوتية، أو يميل إلى الألعاب اللغوية، أو كان له ثراء في المفردات اللغوية، أو شغف بقراءة القصص.

٢ - الذكاء المنطقي / الرياضي:

وهو القدرة على فهم القضايا والمشكلات ذات الطبيعة المنطقية. فصاحب هذه الذكاء يُجيد الاستدلال الاستنتاجي والاستقرائي والربط العقلي والتصنيف والتعميم واختيار الفرضيات وتفحص المشكلات والقضايا بشكل منهجي، والقدرة على التعامل مع الأعداد وحل المسائل الحسابية والهندسية ذات التعقيد العالي، وهو قادر على التعامل بسلاسة مع سلاسل طويلة من المحاكمات العقلية؛ فالذكاء المنطقي يشمل مجمل العمليات العقلية.

ويتضح هذا النوع من الذكاء لدى علماء الرياضيات والإحصاء والمهندسين والمحاسبين والمحامين.

ويُعرف هذا النوع من الذكاء في الطالب في رغبته في معرفة العلاقة بين الأسباب والمسببات، والقيام بتصنيف الأشياء المختلفة في فئات متجانسة، والقيام بالاستدلال والتجريب، والرغبة في اكتشاف الأخطاء فيما يحيط به من أشياء، وتتميز مطالعته بالميل إلى كتب العلوم التجريبية والحسابية.

٣ - الذكاء الاجتماعي / التفاعلي :

وهو البراعة في فهم طبائع الناس ومقاصدهم ومشاعرهم. وهو بذلك يجعل صاحبه ناجحاً في التعامل مع الناس، قادراً على التعاون معهم والتأثير فيهم وإقناعهم وقيادتهم. فالذكي ذكاءً اجتماعياً يمتاز بأربع خصائص، هي: القيادة، والقدرة على تنمية العلاقات والمحافظة على الأصدقاء، والقدرة على حل الصراعات، والمهارة في التحليل الاجتماعي. ولذا يرتاح الناس إلى صحبته ويطمئنون إلى مشورته، وهو أيضاً يشعر بالراحة في معاملتهم، ولا يخشى مواجهتهم، ويحسن القيام بالوساطة بينهم والمفاوضة. ويظهر هذا النوع من الذكاء لدى التجار والسياسيين والمصلحين الاجتماعيين.

ويُعرف هذا النوع من الذكاء في الطالب بكونه حساساً لمشاعر الآخرين، يكون الصداقات بسرعة، ويسارع إلى التدخل متى شعر بوجود مواقف صراع أو سوء تفاهم، كما يميل إلى إنجاز الأنشطة في جماعة، ويكون استيعابه أفضل إذا استذكر دروسه مع زملائه، وهو أيضاً يستحب أن يحل مشكلاته مع غيره على أن ينفرد بحلها، كما يختار الألعاب التي يشارك فيها غيره، وهو باذل للفائدة للآخرين.

٤ - الذكاء الذاتي / الشخصي :

وهو فهم الشخص لذاته وحسن سياسته لها وتقديره إياها. فالذكي ذكاء ذاتياً دقيق الفهم لمشاعره الداخلية، يشعر بانفعالاته

وأهدافه ونواياه، ويضبطها ويتحكم بها بوعي، ويشعر بمواطن قوته وضعفه، وهو بذلك ذو ثقة كبيرة بنفسه، ورؤية مستقلة للقضايا، ويمتاز بمضاء العزيمة، ووضوح الغاية.

ومن علامات هذا النوع من الذكاء: ميل الشخص للعمل بمفرده، وميله إلى الاستقلال في الآراء والتصورات، وحب التأمل. ويلحظ هذا النوع من الذكاء في الفلاسفة والأطباء النفسيين.

٥ - الذكاء الجسمي / الحركي:

وهو البراعة والدقة في الحركات الجسمية.

فصاحبه بارع في التحكم بحركات جسمه وتوازنه، ذو أداء دقيق لها، وهو أيضاً يعبر عن أفكاره ومشاعره بالحركات في شكل بديع. ويبرز هذا النوع من الذكاء في الرياضيين والحرفيين والجراحين والراقصين وأصحاب خفة اليد ونحوهم.

ومن مؤشرات التعرف على هذا النوع من الذكاء في الطلاب: الميل إلى الحركة والنشاط الجسمي، فهم لا يحبون الجلوس طويلاً، ويظهر عليهم القلق وكثرة الحركة إذا طال جلوسهم، ويُعرفون بإجادة مهارات رياضية، ويُفضلون الأنشطة العملية التي تتطلب حركة اليدين، ويُحبون أن يكونوا في الفضاء لا في أماكن المغلقة، ويحتاجون إلى الحركة عندما يفكرون، وقد يستخدمون أيديهم وأرجلهم عند التفكير، ويحتاجون إلى لمس الأشياء حتى يتعلموا، ويفضلون اختبار الأشياء وتجريبها على الاستماع إلى شرح عنها أو رؤيتها، ويهوون خوض المغامرات الجسمية كتسلق الجبال والأشجار.

٦ - الذكاء الموسيقي:

وهو المهارة في التحكم بنغمات الصوت وإصدار الأصوات الموزونة.

فصاحبه ذو قدرة على تشخيص النغمات وإدراك إيقاعها الزمني والإحساس بالأوزان والمقامات الغنائية، والانفعال بالآثار العاطفية لتلك العناصر الموسيقية، والتحكم بنبرات الصوت وملاءمتها للحال.

ويظهر هذا النوع من الذكاء لدى المغنين والعازفين، وأفضل ما يُستعمل فيه هذا النوع الذكاء هو حسن التغني بالقرآن.

ويُمكن التعرف على هذا الصنف من الذكاء في الطالب بإجادة الإنشاد والتحكم في نغمات الصوت، وسرعة حفظ الأغاني، والقدرة على تقليد الأصوات.

٧ - الذكاء التخيلي / البصري^(١):

وهو القدرة على تجسيد الصور الذهنية وتحويلها إلى رسوم محسوسة، ولذا يوجد هذا الذكاء عند الرسامين والمهندسين المعماريين والخطاطين وراسمي الخرائط والنحاتين والبحارة وربان الطائرات.

فصاحب هذا الذكاء يمتاز بقدرته على تخيل الصور كما لو كانت مشاهدة محسوسة، كما أن له شعوراً عالياً بالجهات والمواقع، وقدرة على تحويل ذلك التخيل إلى مادة محسوسة، بالرسم أو صنع التمثال.

ويتجلى هذا النوع من الذكاء عند الأعمى، فهو يستطيع أن يتخيل

(١) ويُسمى أيضاً: الذكاء الفراغي، والفضائي.

الأشياء دون أن يراها، وهذا ما يؤكد استقلال هذا النوع من الذكاء عن حاسة البصر.

ومن مؤشرات هذا النوع من الذكاء: الاستجابة السريعة للألوان، والانفعال للمثيرات، والقدرة على تصور الأشياء وإنشاء بنيتها ذهنياً، والحس الفائق بإدراك الجهات ومعرفة الأماكن والمواقع، وأصحاب هذا الذكاء يفضلون قراءة الصور والخرائط على قراءة النصوص المكتوبة، ويستغرقون في الخيال أكثر من غيرهم، ويستمتعون بالنشطة الفنية.

٨ - الذكاء الطبيعي / البيئي:

وهو القدرة على ملاحظة الكائنات الحية من الحيوان والنبات وتمييزها وتصنيفها.

ولأصحاب هذا الذكاء ميل وارتياح إلى مظاهر الطبيعة، ولهم ذوق وإحساس بها، ومن مؤشرات هذا الذكاء: الاهتمام بالنبات والحيوان ورعايتها وتصنيفها في فئات، وحب العيش في الطبيعة والمقارنة بين مختلف الكائنات الحية ومطالعة كتب العلوم الطبيعية.

هذه أنواع الذكاء الثمانية التي ثبت وجودها بمعايير علمية، ويؤكد الباحثون أن المجال يتسع لإلحاق أنواع أخرى من الذكاء متى ثبت ذلك بالمعايير المعتدّ بها، ويؤكدون أيضاً: أن لكل فرد من الناس نصيباً من كل نوع من هذه الأنواع، لكن الناس يختلفون في أي هذه الأنواع أبرز لديهم، وذلك النوع أو الأنواع الأبرز هي ما تكون السمة الظاهرة عليهم، وهو ما يؤثر في طريقة تفكيرهم وتعلّمهم.

المسألة الثانية: الاستفادة من نظرية تعدد الذكاء في تكوين ملكة الفقه:

إن نظرية (تعدد الذكاء) تجعل الحديث عن الذكاء المشترك لتحصيل ملكة الفقه أقرب إلى الدقة والتفصيل، ولعل أبرز ما يستفاد من هذه النظرية في هذا المقام هو تحديد أنواع الذكاء الملائم لتحصيل ملكة الفقه. وبالنظر في أنواع الذكاء المشار إليها آنفاً، مع النظر في طبيعة المهارات التي تتألف منها الملكة الفقهية نستطيع تصنيف أنواع الذكاء أربعة أصناف:

الصنف الأول: ما هو أساس لجميع الملكات الفقهية، وهو نوعان

من الذكاء:

الأول: الذكاء اللفظي اللغوي:

فإن شطراً كبيراً من المهارات الفقهية هي مهارات مبنية على فهم اللغة، فأصل استمداد الأحكام الشرعية هو الكتاب والسنة، وهما محفوظان باللسان العربي، فالاستمداد منهما يقتضي براعة في فهم الدلالات اللفظية، ثم علم الفقه ذاته مدون أيضاً في الكتب، وكثير منه متلقى بالشرح والسماع من العلماء، وفهم ذلك هو من نصيب الذكاء اللغوي، ويكفي في إبراز مكانة هذا النوع من الذكاء في تعلم العلوم قوله تعالى ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾^(١)، والذي يتعلم بالقلم هو العلوم المسطورة في الكتب.

(١) سورة العلق، الآيات (٣-٥).

فمن الملكات الفقهية المعتمدة على الذكاء اللغوي: فهم دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، وحفظ الأدلة والقواعد والمسائل، والقدرة على الرجوع إلى الكتب ومطالعتها، ومهارة التحليل، ووضع التعريفات (الحدود)، وصياغة القواعد، والتعبير عن الأقوال ومناقشتها، وتفسير المجمل، وتأويل الظاهر، ومعرفة علل الأحكام بالمسالك اللفظية. ومنها أيضاً: تصور الواقعة المراد تنزيل الحكم عليها إذا كان تصورهما بطريق الوصف بالقول.

الثاني: الذكاء الرياضي المنطقي:

سبق أن الذكاء الرياضي المنطقي يشمل عامة الأنشطة العقلية، وهي الأنشطة القائمة على الاستدلال المنطقي؛ ولذا فإن شرطاً كبيراً من المهارات الفقهية تتوقف على هذا النوع من الذكاء، فمن ذلك: فهم دلالة اللزوم، ومفهوم الموافقة، والجمع بين الأدلة، والترجيح بينها، والاستقراء، وتخريج الأصول من الفروع، وتخريج الفروع على الأصول، وتخريج الفروع على الفروع.

ومنها أيضاً: التنظيم الصحيح للأفكار، والحكم على أسانيد الأحاديث، وتخريج علل الأحكام بالمسالك العقلية (المناسبة والشبه والسبر والتقسيم والدوران)، والترجيح بين العلل إذا تعددت، وقياس العكس، والقياس الاقتراني، والاستثنائي، والاستصحاب، ومهارات الجدل المتضمنة حفظ الأقوال وإبطالها.

وكذلك: ملكة التكييف، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والنظر في المآل، وسد الذرائع.

فهذان النوعان من الذكاء هما عماد الأعمال الفقهية، وبينهما تداخل وتلازم في مواضع عدة؛ ولهذا يختلف الأصوليون في بعض الدلالات هل هي عقلية أم لغوية، كدلالة المفهوم^(١)، والإلحاق بالعلة المنصوص عليها^(٢).

الصنف الثاني: ما هو أساس لبعض الملكات الفقهية، وهو نوع

واحد، هو:

الذكاء الاجتماعي:

فهو شرط لعدد من الملكات الفقهية المتعلقة بتنزيل الأحكام على الوقائع، فملكات التنزيل تستدعي -مع الذكاء اللغوي والمنطقي- ذكاءً اجتماعياً، يكون به الفقيه -ولا سيما المفتي والقاضي- مدركاً لمقاصد الناس وطرق سياستهم وإصلاحهم وحيل المحتالين منهم ولمح قرائن أحوالهم وتعرف مآلات التصرفات التي تقتضيها طبائعهم، فبذلك يتمكن من تصور الوقائع على وجهها، وتنزيل الحكم الملائم لها.

فهذه الأصناف الثلاثة من الذكاء هي ما يظهر توقف الملكة الفقهية عليه كلاً -وهو النوعان الأولان- أو بعضاً -وهو النوع الثالث-، وبذلك

(١) فقد «اختلف العلماء في استفادة الحكم من المفهوم مطلقاً: هل هو بدلالة العقل من جهة التخصيص بالذكر، أم مستفاد من اللفظ؟ على قولين». شرح الكوكب المنير (٣/٤٨٠)، وتبعاً لذلك، اختلفوا في مفهوم الموافقة، فقيل: إن دلالة لفظية، وقيل: قياسية. انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٤٨٣-٤٨٤).

واختلفوا أيضاً في دلالة مفهوم المخالفة، فقيل: لغوية، وقيل: عقلية، وقيل: عرفية. انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٥٠٠).

(٢) فقد اختلف في العلة المنصوص عليها: هل تقتضي الإلحاق بطريق اللفظ والعموم، أو القياس؟ انظر: روضة الناظر (٣/٨٣١).

يُمكن عدّه شرطاً للملكة الفقهية، وأما الأنواع الباقية فمنها ما لا يظهر له أثر في الملكة، وهو: الذكاء الحركي الجسمي، والذكاء الموسيقي، ومنها ما له نفع في بعض الأحوال لكن لا يبلغ في الأهمية أن يكون شرطاً للملكة، وهو: الذكاء الذاتي، والذكاء الطبيعي، والذكاء الفضائي.

وإذا تبينت أنواع الذكاء التي لا بد منها للمهارة في الفقه، فينبني على ذلك فوائد أخرى، منها:

● حرص المتفقه على تنمية هذه الأنواع من الذكاء؛ لكونها أمس الذكاءات بالمهارات الفقهية.

فبروز هذا النوع من الذكاء لدى المتفقه إنما هو إشارة إلى استعداده الفطري لتنمية هذا الذكاء، فينبغي تعاهده بالرعاية والصقل حتى ينمو ويشتد، فأثر نمائه ورسوخه سيظهر في جودة الفقه وصحة النظر، وإهماله وتعطيله من الرعاية يُفقد تلك الفائدة^(١)، ومن الثابت حساً وتجربة: أن الذكاء والعقل يزداد بالممارسة والتجارب، ويضمربترك ذلك.

● اختبار مدى استعداد الطلاب للنبوغ في علم الفقه بمبلغ ما لديهم من هذه الأنواع من الذكاء.

فمن المتقرر لدى العلماء: أن قدرأ من الذكاء الفطري شرط للتأهل للاختصاص بطلب العلم^(٢)، وذكر بعض العلماء: أن المعلم يختبر

(١) ينظر ما سيأتي قريباً تحت عنوان (الذكاء بين الوراثة والبيئة).

(٢) انظر: حاجة طالب الفقه إلى الذكاء ص ١١٥، و(العمل عند نقص الذكاء الفطري)

استعداد الطالب لطلب العلم إلى ثلاث سنين، فإذا رأى منه ضعف الاستعداد أرشده إلى ما يلائمه من مصالح دينه ودنياه^(١)، وإذا كان كذلك، فيمكن الاستفادة من اختبارات الذكاء في قياس أنواع الذكاء التي يستلزمها الفقه^(٢)، ففي ذلك تحصيلٌ للمقصود واختصار لوقت المعلم والمتعلم، ولا بد في ذلك من التثبت والتحقق من انضباط الاختبار وصحته، ويمكن فحص نتائجه بطرق أخرى.

● مراعاة نوع الذكاء عند اختيار التخصص الدقيق في علم الفقه.

ومما يمكن أن يقال هنا:

- إن بروز الذكاء الاجتماعي في المتفقه يدعوه إلى أن يستثمر هذا الذكاء بأن يُقبل على الأعمال والأنشطة الفقهية الملائمة لهذا الذكاء، فصاحب الذكاء الاجتماعي مؤهل لأن يكون بارعا في الإفتاء؛ لفهمه أحوال الناس وطبائعهم، وقدرته على حسن توجيههم وإقناعهم، وإن كان لديه قصور في جوانب أخرى.

وبذلك قد يكون ذو الذكاء الاجتماعي أيضاً مؤهلاً لمنصب القضاء، ولا سيما إذا انضم إليه صفات شخصية أخرى، مما ستأتي الإشارة إليه - إن شاء الله - تحت عنوان (الطبيعة المعتدلة).

وبذلك أيضاً: يكون الفقيه ذو الذكاء الاجتماعي مؤهلاً للإجادة في البحث الفقهي في بعض جوانبه المتعلقة بتنزيل الأحكام على الوقائع، وإن كان ذا مستوى متوسط في جوانب البحث الفقهي الأخرى.

(١) ص ١٧٨.

(٢) انظر: تكوين الملكة الفقهية ص ٤٤.

وأيضاً: للذكي اجتماعياً استعداد جيد للتعليم، فهو صاحب ملكة تمكنه من فهم دوافع المتعلمين وطرق توجيههم ونفعهم.

- وإن بروز الذكاء المنطقي في الفقيه يجعله مؤهلاً للإجادة في أغلب مجالات البحث الفقهي، لتوقفها على أنواع متعددة من الاستدلال والاستنتاج العقلي، وسيكون لصاحب هذا الذكاء من الإجادة ثمة ما لا يكون لو أعمل نفسه في غير هذا المجال.

- وبروز الذكاء اللغوي في الفقيه يُشير إلى استعداده لأنشطة فقهية عديدة، منها: الاستدلال المعتمد على الاستنباط من النصوص، والتعليم، والتأليف.

وبمعرفة المرء لجوانب القوة في ذكائه يتنبه لمواضع الضعف فيه، وهذا يرشده إلى فعل ما ينبغي تجاه ذلك الضعف، فيقوده ذلك إلى أعمال المشورة، أو زيادة البحث والتحقيق، أو الإمساك عن الإفتاء في بعض المسائل أو الموضوعات.

والمقصود: أن إقبال المرء على ما يجيد فيه ويُحسنه أقرب إلى أن تنمو ملكته نمواً ملائماً لطبيعته، وذلك أقرب إلى نجاحه، وخير من أعماله نفسه فيما لم يُمكن منه، وهذا ما يرشد إليه الشيخ المرعشي بقوله «ينبغي للمتعليم أن يشتغل بما يوافق طبعه؛ فإنه يمهر فيه إن شاء الله، وعلى المعلم أن يرشده لما يراه صالحاً له، لأن كثيراً من المتعلمين في بدء أمرهم لا يعلمون ما يصلحون له»^(١).

(١) ترتيب العلوم ص ٢٠٠.

● ما سبق يتوقف على معرفة المتفقه بنفسه، ومعرفة المعلم بحال تلميذه.

فلا يتم للمتفقه تنمية الملكات الكامنة فيه إلا بمعرفته بحاله، ونوع الذكاء الأغلب عليه، ولا يتم ذلك للمعلم إلا بمعرفة ذلك من حال تلميذه، وللوسائل أحكام المقاصد؛ فمما يوجد به التعليم: أن يكون المعلم على معرفة بأحوال تلاميذه، وأن يُمكن التلاميذ من معرفة ذلك من أنفسهم، وبذلك يُمكن أن يتوجه المتفقه إلى المجال الأليق به، فيكون ذلك أقرب إلى إدراك ملكته، ومما يتحقق به ذلك: أن يكون اختبار نوع الذكاء جزءاً من اختبار الترشيح والتأهيل للمناصب الفقهية كالإفتاء والقضاء والتعليم والبحث وغيرها.

الفرع الرابع: القدر المكتسب من الذكاء:

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الذكاء بين الوراثة والبيئة.

المسألة الثانية: بعض الوسائل التي استعملها الفقهاء في تنمية

التفكير.

المسألة الأولى: الذكاء بين الوراثة والبيئة:

يقرر الأصوليون في تعريفهم للعقل أن منه ما هو غريزة فطرية، ومنه ما هو مكتسب من التجربة والتعلم^(١)، وقد عُنيت الدراسات المعاصرة

(١) انظر: القواطع في أصول الفقه (١/١٠٢)، إحياء علوم الدين (١/٣١٥)، البحر المحيط (١/٨٨)، المسودة (٢/٩٨١)، الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١٣٤.

في علم الأحياء وعلم النفس كثيراً بتحديد مدى تأثير العوامل الوراثية (الفطرية) والعوامل البيئية (المكتسبة) في درجة الذكاء لدى الإنسان، والموقف الحالي عند كثير من علماء نفس النمو: أن الوراثة (العوامل الفطرية)^(١) هي صاحبة الأثر الأكبر في هذا الجانب، فالمستوى العقلي للإنسان يرجع أولاً إلى العامل الفطري الوراثي، إلا أن ذلك لا يلغي أثر العوامل البيئية (المكتسبة) ولا يقللها، وذلك أن العوامل البيئية^(٢) هي التي تُخرج الذكاء الفطري من دائرة الكمون إلى الظهور، فبمقدار جودة الظروف البيئية يرتفع ذكاء الإنسان الظاهر إلى أعلى مستوى تتيحه قدرته الفطرية، وبدون ذلك: قد يكون لدى الإنسان ذكاء وراثي كبير لكنه يعيش في بيئة غير جيدة، فيكون ذكاؤه الظاهر ضئيلاً.

وفي حال قلة نصيب الإنسان من الذكاء الوراثي فإن العوامل البيئية لا يمكن أن تتيح له ذكاء زائداً على قدرته الفطرية.

وعلى هذا: فقد يتساوى اثنان في صفة الذكاء الوراثية لكن تختلف ظروفهما البيئية؛ فتظهر هذه الصفة في أحدهما بمستوى مختلف عما هي عليه لدى الآخر.

وخلاصة ذلك: أن الوراثة -بإذن الله- هي التي تحدد الإطار الذي

(١) المقصود بعامل الوراثة: انتقال الصفات من الآباء والأجداد إلى الأبناء عن طريق المورثات أثناء تكوين البيضة المخصبة. انظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٥٢.

(٢) يدخل فيها: الحال الصحية والنفسية والغذائية للأم في وقت الحمل، التغذية، الأمراض، الوضع الاقتصادي والتعليمي، أسلوب التنشئة الأسرية، الوسط الاجتماعي العام. انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ٩٥-١١٨.

يمكن أن تظهر فيه القدرة العقلية ولا تتجاوزها، والعوامل المكتسبة هي التي تحدد الشكل الظاهر لهذه الصفة ضمن هذا الإطار^(١).

ولعل هذا ما أشار إليه الجويني رحمته الله حينما عدّ (فقه النفس) أحد شروط المفتي قائلاً: «هو رأس مال المجتهد، ولا يتأتى كسبه، فإن جبل على ذلك فهو المراد، وإلا فلا يتأتى تحصيله بحفظ الكتب»^(٢)، فهي إشارة منه إلى التأثير الأساسي للاستعداد الفطري (الوراثي)، وأن (حفظ الكتب) الذي هو عبارة عن (العوامل البيئية) إنما يجدي عند وجود استعداد فطري.

وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(٣) جمع بين أثر العوامل الوراثية (الناس معادن) والعوامل البيئية (إذا فقهوا)، وأن باجتماعهما تكون الخيرية.

وإذا كان تحسين ذكاء الأفراد ورفع مستواهم العقلي عن طريق التحكم في العوامل الوراثية أمراً عسير التحقيق إن لم يكن مستحيلاً فإن ذلك يمكن أن يتم عن طريق توفير الظروف البيئية والثقافية المناسبة لتنمية الذكاء والقدرات العقلية، وفي هذا الاتجاه ينبغي أن تتجه الجهود^(٤).

نعم، يمكن بذل السبب في الجانب الوراثي بحسن اختيار الزوجة،

(١) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ١١٩، ١٢٥-١٢٦، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٩٧-٩٩، سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٣٣-٥٣، المرجع في تربية الموهوبين ص ٧٣-٧٥.

(٢) البرهان ص ١٣٣٢.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٢.

(٤) انظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٤٦.

فهي الأم التي سيرث الأولاد نصف مورثاتهم منها^(١)، فضلاً عن دورها الأساسي في تشكيل معالم بيئة نشأتهم.

وليس المقصود بالبيئة: البيئة الجغرافية أو مكان السكن، بل: البيئة النفسية، وهي مجموع المثيرات التي يتعرض لها الفرد مدة حياته، وبعبارة أخرى: هي جميع العوامل الخارجة عن المورثات، والتي يبدأ بعضها في التأثير في الفرد من لحظة الإخصاب.

فالبيئة لا يبدأ مفعولها بعد الولادة، وإنما من بدء وجود الجنين في الرحم، فقد ثبت أهمية البيئة قبل الولادة في تحديد نمو الفرد، فأساليب التغذية ونظامها وشروطها تحدث تأثيرات على نمو الجنين وحياته فيما بعد.

ومعنى هذا: أن وجود أخوين في حجرة واحدة وفي وقت واحد ليس معناه أنهما يعيشان في بيئة واحدة نفسياً، فلكل منهما خبرات ماضية تختلف عن خبرات الآخر، وهذه الخبرات تجعله يتأثر بالمثيرات بطرق مخالفة لأخيه، فمجرد وجود أخ أصغر في بيئة الأخ الأكبر يعني وجود فروق هامة، وكذلك وجود أخ أكبر للأخ الأصغر^(٢).

وإذاً فالعناية من الجانب البيئي لها أوجه كثيرة جداً، منها:

● **الحالة الصحية والنفسية للأم وقت الحمل والولادة والرضاعة^(٣).**

● **البيئة المتنوعة والمثيرة للتفكير، فالحرمان من المثيرات الحسية**

(١) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ٨٨.

(٢) انظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٣٦.

(٣) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ٩٦-١٠٥، علم نفس النمو ص ١٥٩، الذكاءات

المتعددة ص ٧٧.

يؤدي إلى انخفاض مستوى الذكاء، خاصة إذا كان في مرحلة ما قبل المدرسة وعند أطفال لهم في الأصل استعدادات عقلية عالية؛ وذلك لحاجتهم إلى تلك المثيرات التي تساعدهم على التعليم^(١).

● **حسن التربية، ولا سيما في سنوات الطفولة الأولى:** فقد أكدت

البحوث التي استقصت تأثيرات البيئة على تطور ذكاء الطفل أن سنوات الروضة مرحلة حاسمة ومهمة في التطور المعرفي، وقد وجدت هذه الدراسات أن الدرجات العالية في اختبارات الذكاء كانت مرتبطة ببيئة الطفل قبل الدراسة، وبينت هذه الدراسات أنها ضرورية للتطور الفكري، وأظهرت أن أعلى العلامات اتفقت مع:

- التواصل العاطفي واللفظي الجيد من قبل الأبوين.
- تجنب فرض العقوبات والقيود على الطفل.
- تنظيم البيئة الطبيعية التي يوجد بها الطفل وبناء جدول أنشطة له.
- العمل على تأمين ظروف مادية مناسبة لجوانب النمو، من ألعاب ومجسمات وغيرها.

● إتاحة الفرص المختلفة من مثيرات وحوافز مشجعة لنمو الطفل. وفي مقابل ذلك فللحرمان العاطفي وأساليب التنشئة الصارمة أثر في تأخر مستوى الذكاء عند الطفل بشكل واضح^(٢).

● **جودة التغذية:** فجودة الغذاء عموماً وفي جميع مراحل العمر

(١) انظر: الذكاء المتعدد في غرفة الصف النظرية والتطبيق ص ٢٣، سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٤٦.

(٢) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ١٠٧، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٩٩، الذكاء المتعدد في غرفة الصف النظرية والتطبيق ص ٢٧.

ذات أثر جيد على صحة العقل^(١)، ولبعض الأغذية منافع خاصة بعمل الدماغ، ومما يذكر في هذا الشأن: أن سوء التغذية للجنين قد يؤدي إلى ضعف الدماغ ضعفا لا يمكن تعويضه في المراحل العمرية التالية لأنه كان في مرحلة التكوين، وكذلك سوء التغذية في السنوات الأولى^(٢)، وأيضاً لنقص الفيتامينات والمعادن المهمة في الغذاء أثر في نقص الذكاء، ولو كانت كمية الطعام كافية^(٣).

● **التعليم المثير للتفكير**: فله أثر كبير في إثارة العقل وتنشيط الذكاء، ومن ذلك: التعليم بحل المشكلات، فيرى الخبراء أن أفضل طريقة لتنمية قدرة الدماغ على التفكير وتوسيع شبكة الارتباطات فيه هي تعريض الإنسان لحل المشكلات التي تتحدى تفكيره، لأن هذه الطريقة تسهم في تكوين ارتباطات جديدة بين العصبونات، وكلما كانت المشكلات متنوعة زادت شبكة الارتباطات الجديدة، أي زادت قوة الدماغ على التفكير وحل المشكلات، بخلاف التعليم القائم على تقديم المعلومات جاهزة للطالب، لتكون وظيفته مجرد تلقيها وحفظها ثم أدائها في الامتحان كما تسلّمها، فلا شك في أثر هذا النوع من التعليم في إخمال الذهن وإطفاء جذوة الذكاء^(٤).

(١) انظر تفصيلاً في ذلك في: الذكاءات المتعددة ص ٧٨-٨٢، مهارات التفكير وسرعة البديهة وحقائب تدريبية ص ٣٥-٣٦.

(٢) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ١٠٦، علم نفس النمو ص ١٥٨، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٩٩.

(٣) انظر: الذكاءات المتعددة ص ٧٧-٧٨.

(٤) انظر: مهارات التفكير وسرعة البديهة وحقائب تدريبية ص ٤٤.

ومما يُذكر هنا: ضرر الجلوس الطويل أمام التلفاز، فهو من أسباب خمول التفكير واعتياد السلبية. انظر: المرجع السابق ص ٤٨.

● **الحال النفسية الجيدة:** للاعتدال النفسي لدى المتعلم أثر كبير في جودة التفكير، فتلقي المتعلم تعاملًا جيدًا واحترامًا وتعاونًا بين الطلاب وتقديرًا من المعلم والأهل، كل ذلك ينشط الدماغ ليفرز موادًا كيماوية إيجابية -هي السيروتونين والدوبامين والندورمين- وهي ذات أثر مهدئ وضابط للأعصاب ويبعث الراحة والرضا واحترام النفس والحيوية والنشاط، بخلاف حال الشعور بالسخط والظلم والقسوة والتهديد والإهانة، فإن ذلك يُخل بإنتاج كيماويات الدماغ وذلك يورث يأسًا وإحباطًا وسلوكًا عدوانيًا وإعراضًا عن التعلّم^(١).

وهذا ما أشار إليه ابن خلدون رحمته الله في مقدمته حين ذكر «أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم؛... ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا فسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله. وصار عيالاً على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين»^(٢).

● **الحال الاقتصادية والاجتماعية:** فهناك ارتباط إيجابي دالٌّ بين

(١) انظر: مهارات التفكير وسرعة البديهة وحقائب تدريبية ص ٣٧-٣٨، ٤٧-٤٨، ٥١.

(٢) ص ٤٩٦.

الذكاء والمستوى الاقتصادي والاجتماعي ومستوى تعليم الأبوين ومهنتهم^(١).

● **الرياضة البدنية:** للرياضة والتمارين البدنية تثير باعثة عصبية تزيد من قدرة الدماغ على تكوين الارتباطات التي تحسن القدرة على الاتصال وتقوي الذاكرة طويلة الأمد وتحسن المزاج^(٢).

المسألة الثانية: بعض الوسائل التي استعملها الفقهاء في تنمية التفكير:

والذي يعنينا في هذا المقام هو الإشارة إلى الوسائل التي اتبعها الفقهاء -رحمهم الله- في تعليمهم وأرشدوا إليها؛ من أجل إذكاء عقول طلاب الفقه ورياضتها، ونجد في هذا المقام أربعة أنواع، هي:

- تجارب الحياة.
- المحاوراة والمناظرة.
- تعلم العلوم الحسابية ونحوها.
- الألغاز الفقهية.

ولا أعني أن تنمية الذكاء لدى الفقهاء منحصر في هذه الأنواع، بل الأنشطة الفقهية كلها تنمي الفهم وتشحذ العقل، لكن هذه أنشطة يظهر فيها مقصد تنمية الذكاء مقصداً أصلياً، وفي غيرها يظهر تابعاً.

(١) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ١١٠، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٩٩.

(٢) انظر: مهارات التفكير وسرعة البديهة وحقائب تدريبيه ص ٤٨.

أ - تجارب الحياة:

لا شك في أن التعرض للتجارب مما يزيد العقل ويهذبه^(١)، وقد قال معاوية رضي الله عنه: «لا حكيم إلا ذو تجربة»^(٢)، كما أن الوحدة وقلة التجربة والممارسة يخبو معها الذهن، وعقد صاحب البيان والتبيين باباً عنوانه (باب من البله الذي يعتري من الوحدة وقلة التجارب)^(٣).

وينبه الأصوليون إلى ما للتجربة من أثر في تنمية العقل في بحثهم في حقيقة العقل، فقد تعددت الأقوال في حقيقة العقل^(٤)، واختار الغزالي وابن الجوزي وغيرهما: أن هذه الأقوال في تعريف العقل غير متعارضة، بل العقل يطلق عليها جميعاً على سبيل الاشتراك^(٥)، وأحد هذه الأقوال أن العقل عبارة عن «علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال؛ فإن من حنكته التجارب وهذبت المذاهب يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة يقال إنه غمر جاهل»^(٦)، ولا يخفى ما يتضمنه تعريف العقل بالمعرفة التجريبية من التنويه بأهمية التجربة والممارسة.

وللتجربة وممارسة الحياة أثر خاص في تنمية ملكة تنزيل الأحكام

(١) انظر: غياث الأمم ص ٢٦٣.

(٢) علقه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وينظر: فتح الباري (١٠/٥٣٠).

(٣) (٢٢٧/٢).

(٤) انظر: القواطع في أصول الفقه (١/١٠٠)، البحر المحيط (١/٨٨)، المسودة (٢/٩٧٧)، التحبير شرح التحرير (١/٢٥٧).

(٥) انظر: إحياء علوم الدين (١/٣١٢)، الأذكياء ص ١٠، المسودة (٢/٩٨١).

(٦) إحياء علوم الدين (١/٣١٤). وانظر: الأذكياء ص ١٠، المسودة (٢/٩٨١).

الفقهية على الوقائع، وذلك ما يحتاج إليه المفتي والقاضي؛ ولذا سيعود الكلام إليها هناك إن شاء الله (١).

ب - المحاوره:

المحاوره هي مراجعة الكلام بين اثنين على أي صفة ولأي غرض (٢)، فقد تكون المحاوره للمشاورة أو لاستيضاح معنى أو للمباحثه، وقد تكون المحاوره مع مخالف فتسمى مجادله أو مناظره أو محاجه.

وللمحاوره أغراض فقهية عدة، منها «تذليل طرق الاجتهاد والقوة على استثمار الأحكام من الأدلة واستنباطها منها، وشحذ الخاطر وتنبيه المستمعين على مدارك الأحكام وما أخذها» (٣)، والذي يناسب هنا هو ما في المحاوره والمجادله من إذكاء العقل وتنمية الفكر؛ وذلك لما تقتضيه من الاجتهاد في تسديد القول والتأمل في حجة المخالف وإعمال الذهن في التحليل والتمييز والتقويم في سرعة بديهة وحسن عبارة؛ ولذلك جاء عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه قوله «رأيت ملاحاة» (٤)

(١) في المبحث الثالث (ملكات تنزيل الأحكام الكلية) من الفصل الثالث (الملكات الفقهية).

(٢) انظر مادة (ح و ر) في: لسان العرب (٤/٢١٧)، القاموس المحيط ص ٣٨١.

(٣) الإحكام للآمدي (٤/٢٣٢).

ولتعدد مقاصد المناظره وفوائدها ستعود الإشارة إليها في المبحث الثالث من هذا الفصل بصفتها مسلكاً من مسالك ممارسة الفقه.

(٤) الملاحاة: المنازعة والمخاصمة، والمشاتمة. انظر: لسان العرب (١٥/٢٤٢)، الصحاح (٦/٢٤٨١).

والمقصود هنا - كما قال يحيى بن مزين (راوي الخبر) -: يريد بالملاحاة هاهنا المخاوضة والمراجعة على وجه التعليم والتفهم والمذاكرة والمدارسة.

الرجال تلقيحاً لألبابهم»^(١)، وقال: «ما رأيت أحداً لاحي الرجال إلا أخذ بجوامع الكلم»^(٢)، ووصف ابن حزم رحمته الله انتفاعه بمجادلة بعض مخالفيه فقال: «لقد انتفعت بمحك^(٣) أهل الجهل منفعةً عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تأليف عظيمة المنفعة، ولولا استثارتهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التأليف»^(٤).

ج - تعلم العلوم الحسابية ونحوها :

بحث الفقهاء -رحمهم الله- حكمَ تعلم العلوم غير الشرعية مما يُحتاج إليه في قيام أمر الدنيا، كالحساب والهندسة والطب والزراعة، وخلاصة بحثهم: أن لهذه العلوم حكم الوسائل، فتجب إذا توقف عليها واجب، وتباح إذا كانت وسيلة إلى مباح... إلخ^(٥)، ونص بعض الفقهاء على أنه يلزم المتفقه معرفة الحساب والمساحة^(٦) لاحتياجه إليهما في بعض أبواب الفقه^(٧).

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٠٨/٢).

(٢) المرجع السابق، الموضوع السابق.

(٣) المحك: اللجاج والمنازعة. انظر: لسان العرب (٤٨٦/١٠)، القاموس المحيط ص ٩٥٣.

(٤) الأخلاق والسير ص ٤٩.

(٥) انظر: المجموع (٦٥/١)، مفتاح دار السعادة (٢٢٢/١ - ٢٢٦)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١٢/٢٦ - ١٣، ٥٠).

(٦) هو فن من فنون الهندسة، وهو استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرها، أو نسبة أرض من أرض إذا قويست بمثل ذلك. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٦٣.

(٧) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

لكن لتعلم بعض العلوم غير الشرعية فائدة أخرى، هي تعويد الذهن على التفكير الموضوعي المنضبط بالبرهان، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في كلامه عن صناعة الحساب بقوله «وَمِنْ أَحْسَنِ التَّعْلِيمِ عندهم: الابتداءُ بها؛ لأنها معارف متّضحة، وبراهين منتظمة؛ فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء دَرَبٌ على الصّواب، وقد يقال: من أخذ نفسه بتعليم الحساب أوّل أمره إنّه يغلب عليه الصّدق؛ لما في الحساب من صحّة المباني ومناقشة النّفس، فيصير ذلك خلقاً ويتعوّد الصّدق ويلازمه مذهبا»^(١)، وأشار إلى نحو ذلك في علم الهندسة بقوله «اعلم أنّ الهندسة تفيد صاحبها إضاءةً في عقله واستقامةً في فكره؛ لأنّ براهينها كلّها بيّنة الانتظام، جليّة التّرتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها؛ لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع»^(٢).

ويقول الشوكاني رحمته الله: «لا بأس على من رسخ قدمه في العلوم الشرعية أن يأخذ بطرف من فنون هي من أعظم ما يصلح الأفكار ويصفي القرائح... كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب»^(٣).

ويلحظ في هذه الإشارة من ابن خلدون والشوكاني وغيرهما أن الاشتغال بهذه العلوم لا ينبغي أن يكون غالباً على المتفقه، لما في ذلك من الاشتغال عما هو أهم، لكن ابن رجب رحمته الله يصرح بأكثر من ذلك، فيرى أن يؤخذ من علم الحساب ما يُحتاج منه في قسمة الفرائض

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٦، ونحوه في: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٦٢

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٨.

والمهيع: كمقعد، الطريق الواسع الواضح. القاموس المحيط (الهيئة) ص ٧٧٧.

(٣) أدب الطلب ومنتهى الأرب ص ٨٦.

ومع ما في استعمال الألباز في التعليم من الترفيه والتنوع الذي يتجدد به النشاط^(١) فلا يخفى ما فيه من شحذ للتفكير بما يتضمنه من تحدٍ يثير العقل ويحفزه على التأمل والتدقيق؛ ولذا سمي اللغز أُحجِيَّةً؛ من الحجى وهو العقل والفتنة^(٢).

الفرع الخامس: العمل عند نقص الذكاء الفطري:

من أنعم الله تعالى عليه بفؤاد ذكي مستعد لاكتساب ملكة الفقه كان من شكر نعمة الله عليه بذل الجهد في التفقه في الدين، وربما يتعين ذلك عليه^(٣)، كما ينبغي لوليه ومعلمه إذا آنس منه مخايل النجابة أن يأخذ بيده إلى سبيل طلب العلم، ف«مبادئ الملكات إذا لم يُحسن استعمالها ذهبت وئيدة الإهمال والغفلة»^(٤)، ولعل كثيراً من المعلمين والناصحين ينالون مثل أجور رجال من أجلاء العلماء؛ لأن توجه أولئك العلماء إلى طلب العلم كان بتوجيه من أولئك الناصحين الذين اكتشفوا نباهتهم وأيقظوهم وأعانوهم على طلب العلم بوجه من أوجه الإعانة، ولولا ما يسر الله لهم من ذلك الإيقاظ فلربما اندثرت فطنهم وعاشوا حياة عادية لا امتياز فيها^(٥).

(١) انظر: منهج الألباز وأثره في الفقه الإسلامي ص ٣٤-٣٧.

(٢) انظر: القاموس المحيط ص ١٢٧٢ (حجا).

(٣) ذلك إذا لم يكن في ناحيته من يصلح لطلب العلم سواه، ووجدت فيه شروط الطلب، وهي صحة حواسه، ووفور عقله، وسلامة آتته. انظر: القواطع في أصول الفقه (٣) / ١٢٤٩.

(٤) أليس الصبح بقريب ص ٢١٢.

(٥) منهم: الإمام الشافعي، قال: كنت أقرأ كتب الشعر فأتى البوادى فأسمع منهم، =

ولا يخفى أن اكتشاف التلاميذ الموهوبين ورعايتهم قد أصبح في هذا العصر فنا مستقلا، له بحوثه ومؤسساته الخاصة، وتبذل فيه الدول جهوداً ونفقات كبيرة؛ لما ترجوه من النفع من هؤلاء الناشئين إذا هُيئت لهم سبل التعليم والرعاية الحسنة.

والغرض الآن هو محاولة وصف موقف الفقهاء تجاه الطالب الذي لا يكون تام الأهلية لاكتساب ملكة الفقه، وذلك لبطء في فهمه، أو ضعف في حافظته، وهنا نجد لهم موقفين إجمالاً:

الموقف الأول: حث الطالب على الاستمرار في الطلب، وإعانتته على ذلك، والصبر على تفهيمه وتعليمه.

والموقف الثاني: إرشاد الطالب إلى أن يأخذ من العلم ما يتعين عليه مما لا يسعه جهله، ثم الانصراف إلى ما يلائمه من الأعمال الصالحة الأخرى، سوى طلب العلم.

ولكلٍ من هذين الموقفين موضع، والحكمة في اختيار الموقف من أحص صفات المعلم الرباني، وفي المسألتين التاليتين تفصيل لذين الموقفين:

=فقدت مكة منها، فخرجت وأنا أتمثل بشعر للبيد وأضرب وحشي قدمي بالسوط، فضرمني رجل من ورائي من الحَجَبَة فقال: رجل من قريش ثم ابن المطلب رضي من دينه وديناه أن يكون معلماً! ما الشعر؟! هل الشعر إذا استحكمت فيه إلا قعدت معلماً؟! تفقه يُعَلِّك الله. قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي؛ فرجعت إلى مكة فكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب.. طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٢١).

ومنهم: عبدالله بن وهب، صاحب الإمام مالك، قال: كان أول أمري في العبادة قبل طلب العلم، فولع بي الشيطان في ذكر عيسى -عليه السلام- وكيف خلقه الله، فشكوت ذلك إلى شيخ، فقال لي: اطلب العلم. فكان سبب طلبي. ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/ ٢٣٧).

المسألة الأولى: حث الطالب على الاستمرار في الطلب وإعانتة على ذلك.

المسألة الثانية: إرشاد الطالب إلى أن يأخذ من العلم ما يتعين عليه ثم الانصراف إلى ما يلائمه من الأعمال الصالحة الأخرى.

المسألة الأولى: حث الطالب على الاستمرار في الطلب وإعانتة على ذلك:

ويكون ذلك عندما لا يكون نقص الذكاء كبيراً، وقد يجبر ذلك النقص أيضاً حداثة في سن الطالب، وصدق في همته، فهنا ينبغي إعانة الطالب واحتساب الأجر في تعليمه والصبر عليه؛ وقد ذكروا من أدب المعلم: أن يُفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهما محققا، ويوضح العبارة لغيره، ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار^(١)، وأن يعطي كل طالب من العلم ما يليق بعقله وعلمه^(٢)، وهذا ما يسميه التربويون المعاصرون: مراعاة الفروق الفردية^(٣)، وهو

(١) انظر: المجموع (١/٧٥).

(٢) في هذا يقول الغزالي: من وظائف المعلم: «أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله؛ اقتداء في ذلك بسيد البشر ﷺ... فليبت إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها... فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد، هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟!» إحياء علوم الدين (١/٢١٢-٢١٣)، وانظر: تذكرة السامع والمتكلم ص ٩٠.

(٣) الفروق الفردية بين المتعلمين: هي التباين والاختلاف بين المتعلمين في نوعية وسرعة تعاملهم مع المحتوى التعليمي، وتدل على تلك الفروق الفردية: الدرجات المتفاوتة للأفراد في التحصيل الدراسي ومستوى قدراتهم العقلية وميولهم واتجاهاتهم وانفعالاتهم الاجتماعية. المدخل للتدريس ص ١٨٦.

مسلك نبوي، فقد عقد البخاري في كتاب العلم من صحيحه: باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا، وروى فيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قصة قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»، وفيها أن معاذاً استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في تبشير الناس بذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا، إذن يتكلموا»^(١)، وروى البخاري أيضاً في هذا الموضوع قول علي رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!»^(٢).

وهذه المراعاة للفروق بين الطلاب لا تكون ما لم يكن المعلم ذا خبرة بطلابه، قريباً منهم، يختبر أفهامهم وعلومهم؛ ليتمكن من إعطاء كل ما يليق به، وتوجيه كل واحد منهم إلى ما يصلح له.

والفقه رتب، القصور عن عليها لا يخرج الطالب من جميعها، فالمعلم الناصح يحاول تبليغ تلميذه أرفع ما هو مؤهل له من مراتب العلم، فمن لم يكن مستعداً لمرتبة الاستنباط واستخراج القواعد قد يكون قادراً -مع بذل الجهد- على مرتبة الاجتهاد في تنزيل الأحكام على الوقائع، وهي إحدى مراتب الفقه، ولا غنى بالناس عنها، كما قد يكون قادراً على حفظ العلم وروايته ونقله وإن لم يكن ذا استنباط منه، فيكون بذلك مشاركاً في حفظ الدين ونقله، مبلغاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكفى بها فضيلة، وإلى ذلك يشير الإرشاد النبوي الكريم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية

(١) برقم (١٢٨)، ورواه مسلم أيضاً في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (٣٢).

(٢) برقم (١٢٧).

وانظر: الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم وأساليبه في التعليم ص ٨١.

قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقهه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١)، قال الخطيب البغدادي: «جمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث مراتب الفقهاء والمتفقهين من غير أن يشذ منها شيء: فالأرض الطيبة هي مثل الفقيه الضابط لما روى، الفهم للمعاني، المحسن لرد ما اختلّف فيه إلى الكتاب والسنة، والأجادب الممسكة للماء التي يستقي منها الناس هي مثل الطائفة التي حفظت ما سمعت فقط وضبطته وأمسكته حتى أدته إلى غيرها محفوظاً غير مغير، دون أن يكون لها فقه تتصرف فيه، ولا فهم بالرد المذكور وكيفيته، لكن نفع الله بها في التبليغ»^(٢).

ومن الشواهد على هذا من سيرة الفقهاء: ما جاء في سيرة الربيع بين سليمان المرادي رحمته الله أحد الخاصة من أصحاب الشافعي، فقد ذكروا أنه لم يكن في المرتبة العليا من الفهم، ولكنه كان شديد العناية بطلب العلم، كما كان شيخه الشافعي رحمته الله مقدراً لحرصه معتنياً به، حتى قال له يوماً: يا ربيع لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك! وكرر الشافعي عليه مسألة واحدة أربعين مرة فلم يفهم! وقام من المجلس حياءً فدعاه الشافعي في خلوة وكرر عليه حتى فهم^(٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، برقم (٧٩)،

ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، برقم (٢٢٨٢)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) الفقيه والمتفقه (١/١٨٠).

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/١٣٤).

وقد أثمر هذا الحرص من الربيع وتلك العناية الشافعية: أن كان الربيع رحمته الله راوية كتب الشافعي الأوثق المقدم عند اختلاف الرواة عن الشافعي، متقدما في ذلك على من هو أفقه منه من أصحاب الشافعي^(١).

وقد يكون من النصح للمتعلم أن يصرفه من طلب علم إلى طلب علم آخر، يقول بدر الدين الحلبي: «ليس كل نفس تقبل العلم، ولا كل نفس تصلح لتعلم علم تصلح لتعلم علم آخر، فربما كان لها من الاستعداد في علم ما ليس لها مثله في علم آخر، وعلى المعلم العاقل أن يتعهد تلامذته؛ فإن رأى من أحد منهم عدم تهيؤ لتحصيل علم صرفه إلى علم آخر، ولا يتركه هملا يصرف نقد عمره فيما لا ينال»^(٢).

والشاطبي رحمته الله بعد أن قرر أن فروض الكفايات إنما تكون فروضا في حق القادرين عليها لا على كل فرد من الأمة، وأن الفرض على كل واحد من القادرين إنما يكون في حدود قدرته لا فيما يزيد عليها، قال: «ثم إن وقف هنالك^(٣) فحسن، وإن طلب الأخذ في غيره أو طلب به فعل معه فيه ما فعل فيما قبله، وهكذا إلى أن ينتهي...»

وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وصف الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور، فيمال به نحو ذلك، ويعلم آدابه المشتركة، ثم يصار به إلى ما هو الأولى فالأولى من صنائع التدبير: كالعرافة، أو النقابة، أو الجندية، أو الهداية، أو الإمامة، أو غير ذلك مما يليق به، وما ظهر له

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/١٣١-١٣٢).

(٢) التعليم والإرشاد ص ٢٣٨.

(٣) أي على القدر الذي يستطيعه من التعلم.

فيه نجابة ونهوض، وبذلك يتربى لكل فعلٍ هو فرضٌ كفايةٍ قومٍ... فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف في مرتبةٍ محتاجٍ إليها في الجملة، وإن كان به قوة زاد في السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات في المفروضات الكفائية، وفي التي ينذر من يصل إليها، كالاتجاه في الشريعة والإمارة؛ فبذلك تستقيم أحوال الدنيا وأعمال الآخرة.

فأنت ترى أن الترقى في طلب الكفاية ليس على ترتيب واحد، ولا هو على الكافة بإطلاق، ولا على البعض بإطلاق... بل لا يصح أن يُنظر فيه نظراً واحداً حتى يفصل بنحوٍ من هذا التفصيل، ويوزع في أهل الإسلام بمثل هذا التوزيع^(١).

المسألة الثانية: إرشاد الطالب إلى أن يأخذ من العلم ما يتعين عليه ثم الانصراف إلى ما يلائمه من الأعمال الصالحة الأخرى:

إذا تعسر على الطالب مطلبه، وظهر عدم استعداده للاختصاص بطلب الفقه، فالصواب هنا أن يأخذ من العلم ما يتعين عليه معرفته^(٢)، ثم يصرف عنايته إلى أفضل ما يقدر عليه من العمل الصالح، ولا يحسن الإلحاح على من كان كذلك بطلب الفقه.

(١) الموافقات (١/١٢٣-١٢٤).

(٢) العلم المتعين على الإنسان: هو علم ما يجب عليه القيام به اعتقاداً وعملاً، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال. انظر: الذخيرة (١/١٤٣)، الموافقات (١/٢٠)، الرسالة ص ٣٥٧-٣٦٠، الفقيه والمتفقه (١/١٦٨)، القواطع في أصول الفقه (١/٩٨)، إحياء علوم الدين (١/٥٦)، الرد على من أخلد إلى الأرض ص ٦، الإحكام شرح أصول الأحكام (٢/١١٥-١١٧).

وذلك أن الله -عز وجل- خلق الخلق غير عالمين بوجوه مصالحهم... ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدرج والتربية.. فطلب الناس بالتعلم والتعليم لجميع ما يستجلب به المصالح وكافة ما تدرأ به المفساد؛ إنهاضاً لما جبل فيهم من تلك الغرائز الفطرية والمطالب الإلهامية؛ لأن ذلك كالأصل للقيام بتفاصيل المصالح.. وفي أثناء العناية بذلك يقوى في كل واحد من الخلق ما فُطر عليه وما ألهم له من تفاصيل الأحوال والأعمال، فيظهر فيه وعليه، ويبرز فيه على أقرانه ممن لم يهياً تلك التهيئة، فلا يأتي زمان التعقل إلا وقد نجم على ظاهره ما فُطر عليه في أوليته، فترى واحداً قد تهيأ لطلب العلم، وآخر لطلب الرياسة، وآخر للتصنّع ببعض المهن المحتاج إليها، وآخر للصراع والنطاح، إلى سائر الأمور.. فعند ذلك ينتهض الطلب على كل مكلف في نفسه من تلك المطلوبات بما هو ناهض فيه، ويتعين على الناظرين فيهم الالتفات إلى تلك الجهات فيراعونهم بحسبها ويراعونها إلى أن تخرج في أيديهم على الصراط المستقيم، ويعينونهم على القيام بها، ويحرضونهم على الدوام فيها حتى يبرز كل واحد فيما غلب عليه ومال إليه من تلك الخطط، ثم يخلى بينهم وبين أهلها، فيعاملونهم بما يليق بهم ليكونوا من أهلها، إذا صارت لهم كالأوصاف الفطرية، والمدركات الضرورية؛ فعند ذلك يحصل الانتفاع، وتظهر نتيجة تلك التربية»^(١).

(١) الموافقات (١/١١٩-١٢٢).

«الذي يتعين لهذا العلم: من جاد حفظه، وحسن إدراكه، وطابت سجيته وسريرته، ومن لا فلا»^(١).

ويعدُّ المرعشيُّ من التدبير الرديء في التعليم: «سلوك من لم يرزقه الله تعالى حدة الذهن مسالك الأذكياء، فكم من طالب لا يقدر إلا على تحصيل جليات العقائد والفقهِ يشتغل بالنسخ المغلقة والفنون الدقيقة، فيدع السعي فيما يمكن له تحصيله، ويصرف أيامه في الوثوب إلى ما لا تصل إليه يده؛ فيُحرم عن جميع المطالب العلمية، ويكون في النهاية كأنه بدأ أول مرة!

وهذا الضلال ناشئ من استنكاف البليد عن ترك السلوك إلى مسالك الأذكياء، أو من جهله بمرتبة نفسه... فيجب على العالم المدرس أن يمتحن استعداد الطالب، فيُرشده إلى ما يساعده استعداده، ويمنعه عما لا تصل إليه يده... فلو أن ذلك القاصر اشتغل في أيام تحصيله بما تيسر له من العلوم النافعة لحصل له سعادة الدنيا والآخرة»^(٢).

وفي هذه المراعاة المتفكِّة مع الفطرة من التكامل بين المسلمين وسد الحاجات كافة ما لا يكون لو اجتمع الناس كلهم على باب واحد من أبواب الخير والدين، ولو كان ذلك البابُ باب العلم، بل وتنوع العبادات في الشريعة وتعدد أبواب الجنة فيه إشارة إلى اعتبار تنوع قدرات الناس وميولهم.

(١) الذخيرة (١/١٤٤).

(٢) ترتيب العلوم ص ١٩٦، وانظر: الإحكام شرح أصول الأحكام (٢/١١٧)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/٤٩).

ومن قواعد الفقه النافعة هنا: أن أفضل الأعمال أمر يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فالعمل وإن كان في نفسه فاضلاً - كطلب العلم- يكون مفضولاً بالنسبة إلى أشخاص وأحوال، فالأفضلية المطلقة لا تستلزم الأفضلية المقيدة، يقول ابن تيمية رحمته الله: «قد يكون العمل المفضول أفضل بحسب حال الشخص المعين؛ لكونه عاجزاً عن الأفضل، أو لكون محبته ورغبته واهتمامه وانتفاعه بالمفضول أكثر؛ فيكون أفضل في حقه لما يقترن به من مزيد عمله وحبه وإرادته وانتفاعه؛ كما أن المريض ينتفع بالدواء الذي يشتهي ما لا ينتفع بما لا يشتهي وإن كان جنس ذلك أفضل، ومن هذا الباب صار الذكر لبعض الناس في بعض الأوقات خيراً من القراءة، والقراءة لبعضهم في بعض الأوقات خيراً من الصلاة، وأمثال ذلك لكمال انتفاعه به، لا لأنه في جنسه أفضل»^(١).

ويقول: «المفضول تارة يكون أفضل... لبعض الناس؛ لأن انتفاعه به أتم، وهذه حال أكثر الناس، قد ينتفعون بالمفضول لمناسبته لأحوالهم الناقصة ما لا ينتفعون بالفاضل الذي لا يصلون إلى أن يكونوا من أهله»^(٢)، «فأكثر الخلق يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقاً؛ إذ أكثرهم لا يقدر على الأفضل ولا يصبرون عليه إذا قدروا عليه، وقد لا ينتفعون به، بل قد يتضررون إذا طلبوه، مثل من لا يمكنه فهم العلم الدقيق إذا طلب ذلك؛ فإنه قد يفسد عقله ودينه»^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٤ / ١٩٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢ / ٣٤٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩ / ١١٩)، وانظر: الموافقات (٤ / ٥١).

ولهذا شواهد كثيرة في سنة النبي المعلم المربي صلوات الله وسلامه عليه، إذ كان يُسأل كثيراً عن أفضل الأعمال، وكان جوابه يختلف، ولم يكن ذلك اختلاف تناقض، ولكنه لاختلاف أحوال السائلين^(١)، وكان عليه السلام يولي كل رجل من أصحابه من العمل ما يصلح له، فمنهم من يوليه القضاء، ومنهم من يوليه إمارة الجيش أو إمارة ناحية، ومنهم من يحذره من ذلك، ومنهم من يشني عليه بالقراءة، أو بالفقه، أو يدعو له بذلك.

لكن مما يُحذر هنا: الاستعجال في الحكم على طالب بعدم صلاحيته للتفقه، فقد يتعسر التحصيل على الطالب في أول طلبه ولا يكون ذلك لعدم صلاحيته، ولكن لعدم دربته على العلم والحفظ، أو لسوء في طريقة تعلمه أو تعليمه، ولذا حذر بدر الدين الحلبي المعلم من الحكم على تلميذه بعدم الصلاحية إلا بعد أن مدة من الاشتغال، «فإن رؤي قد علق بفكره شيء مما ألقى إليه وتحفظه وفهمه استدل بذلك على قابلية فيه وتهيؤ للتعلم، وإلا علم أنه على الضد من ذلك فصرف عن العلم إلى ما يلائم عقله من الصنائع»^(٢)، ورأى حاجي خليفة أن تكون مدة الامتحان هذه ثلاث سنين^(٣)؛ حذراً من الاستعجال.

وفيما يلي شاهدان من سيرة الفقهاء على هذا التثبيت:

١ - حكى الحسن بن زياد عن نفسه، قال: كنت أختلف إلى زفر

(١) انظر طرفاً من هذه الأحاديث في: الرسول المعلم عليه السلام وأساليبه في التعليم ص ٨٦-٩٢.

(٢) التعليم والإرشاد ص ٢٦١.

(٣) كشف الظنون (١/٤٩).

وإلى أبي يوسف في الفقه، وكان أبو يوسف أوسع صدرًا بالتعليم من زفر، فكنت أبدأ بزفر فأسأله عن المسألة التي تشكل علي، فيفسرها لي فلا أفهمها، فإذا أعيبته قال: ويحك! مالك صناعة؟ مالك ضيعة؟ ما أحسبك تفلح أبدا!

قال: فأخرج من عنده وقد فترت واغتممت، فآتي أبا يوسف فيفسرها لي، فإذا لم أفهم قال لي: ارفق. ثم يقول لي: أنت الساعة مثلك حين بدأت؟ فأقول له: لا، قد وقفت منها على أشياء، وإن كنت لم أستتم ما أريد. فيقول لي: فليس من شيء ينقص إلا يوشك أن يبلغ غايته؛ اصبر فإنني أرجو أن تبلغ ما تريد^(١).

٢ - القفال المروزي، الفقيه الشافعي الكبير^(٢)، ابتداء في طلب العلم كبيراً، وكان قبل ذلك يصنع الأقفال، نقل ياقوت الحموي: أن القفال الشاشي صنع قفلا ومفتاحا وزنه دانيق^(٣) واحدا! فأعجب الناس به جداً وسار ذكره، وبلغ خبره إلى القفال هذا فصنع قفلا مع مفتاحه وزنه طسوج^(٤) وأراه الناس فاستحسنوه ولم يشع له ذكر! فقال يوما لبعض من يأنس إليه: ألا ترى كل شيء يفتقر إلى الحظ؟! عمل الشاشي قفلا وزنه دانيق ووطن به البلاد، وعملت أنا قفلا بمقدار ربعه ما ذكرني أحد! فقال له: إنما الذكر بالعلم لا بالأقفال.

(١) حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي ص ١٩.
(٢) وهو المراد بالقفال في كتب الفقه الشافعية عند الإطلاق، وإن أريد الآخر قيد بالشاشي، أو الكبير. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٥/٥٣).
(٣) الدانيق: سدس الدرهم. انظر: القاموس المحيط ص ٨٨٤.
(٤) الطسوج، ربع الدانيق. انظر: القاموس المحيط ص ١٩٧.

فرغب في العلم واشتغل به وقد بلغ من عمره أربعين سنة، وجاء إلى شيخ من أهل مرو وعرفه رغبته فيما رغب فيه فلقنه أول كتاب المزماني، وهو: «هذا كتاب اختصرته»، فرقي إلى سطحه وكرّر عليه هذه الثلاثة ألفاظ من العشاء إلى أن طلع الفجر، فغلبته عينه فنام، ثم انتبه وقد نسيها؛ فضاق صدره وقال: أيش أقول للشيخ؟!!

وخرج من بيته فقالت له امرأة من جيرانه: يا أبا بكر! لقد أسهرتنا البارحة في قولك هذا كتاب اختصرته، فتلقنها منها وعاد إلى شيخه وأخبره بما كان منه، فقال له: لا يصدّنك هذا عن الاشتغال؛ فإنك إذا لازمت الحفظ والاشتغال صار لك عادة. فجدّ ولازم الاشتغال حتى كان منه ما كان، فعاش ثمانين سنة: أربعين جاهلاً وأربعين عالماً^(١).

(١) معجم البلدان (٥/١١٦).

ومما يؤكد خطورة اكتشاف قدرات الطلاب وخفاء تلك القدرات في بعض الحالات: أن كثيراً من مشاهير المخترعين المعاصرين كانت لهم بداية دراسية غير مشجعة، وكان نبوغهم العلمي متأخراً، منهم:

● ألبرت إنشتاين: لم يستطع الكلام قبل الرابعة، ولم يستطع القراءة قبل السابعة، وكان تحصيله في المرحلة الثانوية ضعيفاً.

● توماس أديسون: قال عنه معلمه: إنه بليد وكسول وغير ناجح في تعلمه.

ومنهم: ويرنر ون براون، ونستون تشرشل، بابلو بيكاسو، لويس باستور وغيرهم كثير ممن عجز المسؤولون والمعلمون عن اكتشاف قدراتهم، مما يزيد وعينا وإدراكنا أن كشف الطالب المبدع والتعرف عليه ليس أمراً سهلاً. انظر: تنمية مهارات التفكير ص ١٩٧، علم النفس التربوي الأسس النظرية والتطبيقات العملية ص ٢٩٢.

المطلب الثاني: الطبيعة المعتدلة:

لا شك في أن الناس مختلفون في طبائعهم: قوة وضعفاً، ولينا وقسوة، وأناة وعجلة، وجُرأة وجبنا، واستقلالاً وتبعية، ورزانة وخِفة... ومواقفهم في هذه الصفات متفاوتة بين طرفي الإفراط والتفريط، ولطبيعة كل إنسان أثر كبير في سلوكه واختياره وتصرفه، والفقيه - وإن كان متّبعا للشرع محكّما له - بشر لا خروج له عن طبيعته التي جبل عليها، فلا بد من أن يكون لها أثر في اختياره ورأيه؛ «فكما يحتاج الاجتهاد.. استعداداً عقلياً أساسه الذكاء فإنه يحتاج أيضاً خلفية نفسية سوية، ليست ذات استعداد للجنوح إلى الشذوذ والتطرف والغلو والإغراب.

وقد يظن المتصدي للاجتهاد أن هذه النفسية السوية هي فرع من خلفية التقوى، وأن عزمة منه تكفي لتكوينها، ولكن الأمر في الحقيقة أبعد، وهناك جوانب خفية من تأثير الأساليب وطرق التلقي والبحث في تكوين نفسية المجتهد دون أن يدري أو يفطن لها^(١)؛ ولذا كان اعتدال الطبع أساساً لبناء الملكة الفقهية المعتدلة؛ وهذا ما سيحاول هذا المطلب بيانه في الفروع الثلاثة التالية:

الفرع الأول: التعريف بالطبيعة، وأثرها في السلوك والتفكير.

الفرع الثاني: وصف الطبيعة المعتدلة التي ينبغي أن يتصف بها

الفقيه.

الفرع الثالث: موقف المتفقه من الأخلاق الخارجة عن الاعتدال.

(١) أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي (١/١٣٧).

الفرع الأول: التعريف بالطبيعة، وأثرها في السلوك والتفكير:

الطبيعة هي السجية التي جُبل عليها الإنسان^(١).

فطبيعة الإنسان هي مجموع أخلاقه وصفاته النفسية التي يصدر منها في مواقفه وتصوراته وتفكيره في المشكلات العارضة له، ويعبّر علماء النفس عن ذلك بـ(الشخصية)، التي تُعرّف بأنها «مجموع الخصال والطباع المتنوعة الموجودة في كيان الشخص باستمرار، وهي التي تميزه عن غيره، وتنعكس على تفاعله مع البيئة من حوله... سواء في فهمه وإدراكه، أم في مشاعره وسلوكه وتصرفاته ومظهره الخارجي»^(٢).

وتُعرّف الشخصية أيضاً بأنها: التنظيم الثابت المستمر نسبياً لأخلاق الشخص ومزاجه وعقله وجسده، وهذا التنظيم هو الذي يحدد تكيّفه الفريد مع محيطه^(٣).

والعوامل المؤثرة في تكوين الشخصية متعددة، من أبرزها: الوراثة، والخِلق، والأسرة وأساليب التنشئة، والمؤثرات الثقافية والاجتماعية، والأزمات والعقبات النفسية^(٤).

أثر طبيعة الإنسان وشخصيته في سلوكه وتفكيره:

تضمن هذان التعريفان للشخصية وغيرهما من التعريفات: أثر طبيعة

(١) انظر: الصحاح (٣/ ١٢٥٢).

(٢) ما تحت الأقنعة ص ١٠.

(٣) سيكولوجيا الشخصية ص ١٥، وانظر فيه تعريفات أخرى ص ١٥-١٧.

والتعريف ذاته في علم نفس الشخصية ص ٢٦، وانظر فيه تعريفات أخرى ص ٢٣-٢٧.

(٤) انظر: ما تحت الأقنعة ص ١٦-٢٣، علم نفس الشخصية ص ٥٢، ٥٥.

الإنسان وشخصيته في سلوكه وتفكيره، وهو أثر واضح بين، وفي اختلاف الشيخين في أسرى بدر بيان لأثر الطبيعة في الرأي، حين قال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة؛ أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار؛ فعسى الله أن يهديهم للإسلام. وقال عمر: أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان -نسيباً لعمر- فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، ثم نزل الوحي موافقاً لرأي عمر^(١).

وفي موقف آخر نجد «أبا بكر رأى التسوية في العطاء، إذ قال: الدنيا بلاغ، وإنما عملوا الله عز وجل، وأجورهم على الله، حيث قال عمر: كيف تساوي بين الفاضل والمفضول؟^(٢) ورأى عمر التفاوت؛ ليكون ذلك ترغيباً في طلب الفضائل؛ ولأن أصل الإسلام وإن كان لله ويوجب الاستحقاق فكذلك توجب زيادة قدم ومقام في الإسلام زيادة في قدر الاستحقاق.

والمعنى الذي ذكره أبو بكر فهمه عمر رضي الله عنه ولم يفده غلبة الظن، وما رآه عمر فهمه أبو بكر ولم يفده غلبة الظن ولا مال قلبه إليه؛ وذلك لاختلاف أحوالهما، فمن خلق خلقاً أبي بكر في غلبة التأله وتجريد النظر في الآخرة غلب على ظنه لا محالة ما ظنه أبو بكر ولم ينقدح في نفسه إلا ذلك، ومن خلقه الله خلقاً عمر وعلى حالته وسجيته في الالتفات إلى السياسة ورعاية مصالح الخلق وضبطهم وتحريك دواعيهم

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، برقم (١٧٦٣)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) انظر الآثار في ذلك في: الخراج لأبي يوسف ص ٤٢-٤٥، وسنن البيهقي (٦/٣٤٨).

للخير فلا بد أن تميل نفسه إلى ما مال إليه عمر، مع إحاطة كل واحد منهما بدليل صاحبه.

ولكن اختلاف الأخلاق والأحوال والممارسات يوجب اختلاف الظنون، فمن مارس علم الكلام ناسب طبعه أنواعا من الأدلة يتحرك بها ظنه لا يناسب ذلك طبع من مارس الفقه، وكذلك من مارس الوعظ صار مائلا إلى جنس ذلك الكلام.

بل يختلف باختلاف الأخلاق، فمن غلب عليه الغضب مالت نفسه إلى كل ما فيه شهامة وانتقام، ومن لان طبعه ورق قلبه نفر عن ذلك ومال إلى ما فيه الرفق والمساهلة^(١).

وقد قرر الفقهاء أن من صفات الإمام ألا يكون جبانا فيُعتدى عليه وعلى المسلمين، ولا يكون غضوبا فيسرع في الانتقام ويتجاوز الحد^(٢)، وأن يكون القاضي قويا من غير عنف، لينا من غير ضعف^(٣)، وهي إشارة منهم إلى مدى حاجة الفقيه إلى الاعتدال النفسي، وذلك يتضمن الاعتراف بأثر الصفات الشخصية في الرأي والتصرف.

ولقوة الارتباط بين شخصية المرء وسلوكه؛ كان أحد تعريفات (الشخصية) أنها: ما يُمكننا من التنبؤ (التوقع) بما سيفعله الشخص

(١) المستصفى (٢/٤١٢-٤١٣).

(٢) انظر: سراج الملوك ص ٥٧، تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص ٢٣٩، غياث الأمم ص ٢٦٤، التبر المسبوك في نصيحة الملوك ص ٦٧.

(٣) انظر: الذخيرة (١٠/١٩)، معالم القرية في طلب الحسبة ص ٢٠٤، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص ٨٩، المغني (١٤/١٧).

عندما يوضع في موقف معين^(١)، أي أننا بمعرفة شخصية إنسان نستطيع أن نتوقع ما هو فاعل في موقف ما.

ومن الجوانب التي يظهر فيها أثر الشخصية: التفكير، ف«كثير من الناس فيه ذكاء لا بأس به، لكن تفكيره فيه خلل في منهاجه أو أسلوبه، يؤثر سلباً في آرائه وأفكاره وقراراته، ومن ثم في نجاحه في حياته، وفي المقابل: هناك من الناس من هو متوسط في الذكاء لكنه موفق في حسن التفكير، يتوفر في تفكيره الخصائص اللازمة للتفكير النافع، فيستطيع بتوفيق الله حل مشكلاته واتخاذ قراراته بشكل مناسب ووقت مناسب»^(٢).

ويعنى علماء النفس كثيراً بدراسة أنماط الشخصية وعللها، ويمكن الإشارة هنا إلى نماذج من أثر الطبيعة الشخصية على السلوك الفقهي من خلال عرض بعض صور اعتلال الشخصية، وربطها بما يمكن أن تؤدي إليه من انحراف، فمن صور اعتلال الشخصية:

الشخصية المرتابة: وهي الميل إلى الإفراط في إساءة الظن والشك في الآخرين واليقظة والحذر منهم، ومن سمات صاحب هذه الشخصية: تغليب سوء الظن، والمبالغة في الحذر من الناس والشعور المفرط بالعداء والتنافس، والميل إلى المراء والعناد وصعوبة الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه، والصرامة في معاملة الآخرين وقلة العفو عن أخطائهم^(٣).

(١) علم نفس الشخصية ص ٢٦.

(٢) ما تحت الأفتعة ص ١٢٦.

(٣) انظر: ما تحت الأفتعة ص ١٨٢-١٨٥، سيكولوجيا الشخصية ص ٦٥.

الشخصية الساذجة: وهي المتّصّفة بالثقة الزائدة في الناس عموماً والاطمئنان إليهم وائتمانهم، دون تأمل لمدى أمانتهم واستحقاقهم الثقة، ويتصف صاحب هذه الشخصية أيضاً بالغفلة عما يدور حوله من أمور تنفعه في مصالحه وأهدافه، ويميل إلى التبعية لغيره في الرأي، وإلى التسامح والعفو حتى مع غير المستحق، وإلى قبول الانتقاد ولو كان غير سديد^(١).

الإفراط في الغلظة: فالمفرط في الغلظة ذو قلب قاس قليل الرحمة حتى مع من ينبغي معهم الرحمة والعطف، كالوالدين والاولاد والضعفاء، بل إنه يستمتع بممارسة القسوة والشدة مع الآخرين، فهو يلتذ بتحقير غيره وإهانته والسخرية به والتلاعب بمشاعره، ويميل إلى استخدام التهديد في الخصومات، ويشدد في العقوبة بما يفوق الذنب، وله ولع بالخصومة والمراء، ولا يتحاشى الكذب إن احتاج إليه للانتصار على خصمه^(٢).

الإفراط في الرحمة: المفرط في الرحمة تغلبه مشاعر الرأفة والعطف، وقد تحمله على الرقة في مواطن تقتضي الشدة، ويميل إلى استخدام الترغيب دائماً حتى حينما لا يجدي إلى الترهيب، ويغلب عليه الضعف واللين والتسامح، ويتجنب الخصومات والمجادلات^(٣).

تضخم الضمير: (الضمير) تعبير حديث عن المراقبة الذاتية ويقظة

(١) انظر: ما تحت الأقنعة ص ١٩٥.

(٢) انظر: ما تحت الأقنعة ص ٢٠١، ٣٣٦.

(٣) انظر: ما تحت الأقنعة ص ٢٠٤.

الحس التي تدعو المرء إلى فعل الخير واجتناب المنكر، ويُعد الضمير متضخماً -بحسب تعبير المختصين النفسيين- إذا كان فيه إفراط ومبالغة في الشعور بالخطأ والإثم والتقصير في أمور لا تدعو إلى ذلك، ويصاحب ذلك لوم للنفس وتأنيب لها فوق ما هو مطلوب شرعاً وعرفاً، فصاحب الضمير المتضخم مُفْرِط في مراعاة المبادئ والأخلاق والنظم والتعاليم ولو أدى ذلك إلى حرج بالغ، وهو شديد المحاسبة لنفسه ولغيره على الخطأ بدرجة لا تتناسب مع ذلك الخطأ، وهو أيضاً شديد التحري للدقة والصواب في أقواله وأفعاله، وذلك يُفوت عليه مصالح راجحة دينية ودنيوية، ويغلب جانب الخوف والترهيب على الرجاء والترغيب^(١).

الشخصية المستسلمة: يتصف صاحب هذه الشخصية بالضعف تجاه رغبات الناس ومطالبهم، فهو يميل إلى الإذعان لها، ويسلك غالباً مسلك المجاملة والمسايرة لتصرفات الناس وإن كان غير مقتنع بها، وهو يضعف عن التعبير عن مشاعره وإبداء رأيه إذا كان مخالفاً لآراء الناس، ويتواضع تواضعاً زائداً، ويتجنب الخصومات ولو كان في ذلك تنازل عن شيء من حقه^(٢).

المبالغة في الحرص والدقة والانضباط: وصاحب هذه الشخصية مُفْرِط في طلب الكمال والمثالية في الأمور كلها؛ ولهذا يحب أن يباشر القيام بأموره كافة ولا يطمئن إلى التوكيل فيها، ويميل إلى إخضاع

(١) انظر: ما تحت الأقنعة ص ٢٦٧-٢٧٠، ٣٣٦.

(٢) انظر: ما تحت الأقنعة ص ٢٠٩.

الآخرين لما يراه صواباً من القيم والمعايير، مع صلابة في الرأي وقلة مرونة وحدة مع المخالف، ومن صفاته: صعوبة التكيف مع الأمور المستجدة التي لم يعتد عليها، ولا سيما أنه ميال إلى التزام ما اعتاده وألفه، وهو كثير المساءلة لنفسه عن مدى صواب أفعاله وتصرفاته الماضية، فلا يزال يعيد النظر فيها ويقلبها بتشكك واهتمام، وهو ذو تحفز شديد وتدقيق عميق عند اتخاذ القرارات، ويقع كثيراً في التذبذب بين الآراء مع ضعف في الحزم وكثرة تردد.

ويُتَّصف أيضاً بالعجلة في تنفيذ الإلحاحات الذهنية التي تطرأ على ذهنه من طموحات وأفكار ونحو ذلك، فيصعب عليه مقاومتها أو تأجيلها.

ومن صفاته أيضاً: الاستغراق في التفاصيل، وقد يكون ذلك على حساب الأصل، والاحتياط الزائد^(١).

التفكير الحدّي: وهو المتمثل بقاعدة (كل شيء أو لا شيء)، فالأشخاص عنده إما محبوبون (تجتمع فيهم الصفات الحسنة)، أو مكروهون مبغضون (تجتمع فيهم الصفات السيئة)، وكذا الأمور والأحداث إما أن تكون صواباً كلها، أو خطأ كلها، ولا وسط.

وهذا النمط من التفكير يمر به الطفل في مراحل نموه النفسي ثم يتخطاه، فيدرك أن الصفات السلبية قد تجتمع مع الإيجابية في شخص واحد، وأن الأمور ليست دائماً على طرفي نقيض، وإذا لم يتجاوز

(١) انظر: ما تحت الأقنعة ص ٢٧٢-٢٧٤.

الشخص هذه المرحلة استمرت معه هذه القاعدة الخاطئة، واستمر تأثيرها في فهمه لنفسه ولغيره^(١).

هذه أمثلة من علل الشخصية، ونستطيع أن نربط بين هذه العلل وبعض الانحرافات الملحوظة في ساحة الفتوى والاجتهاد من بعض غير الراسخين في العلم، كما في هذا الجدول:

	الشخصية
<ul style="list-style-type: none"> ● تغليب جانب الاحتياط والمنع في المسائل الاجتهادية المترددة بين التحريم والإباحة. ● المبالغة في سد الذرائع. ● ترجيح جانب درء المفسد على جلب المصالح عند تزامهما. ● الغلظة على المخالف وسوء الظن فيه. ● العناد والتعصب للرأي. ● المبالغة والشدة في تقدير العقوبات التعزيرية. 	الشخصية المرتابة و المفرطة في الغلظة
<ul style="list-style-type: none"> ● الاغترار بخداع المستفتين. ● إهمال قاعدة سد الذرائع، لا ترخصاً وتفلاً، ولكن لغلبة حسن الظن في الناس وعدم توقع المآلات السيئة. 	الشخصية الساذجة
<ul style="list-style-type: none"> ● التقصير في بيان الحق والرد على المنكرات. 	الإفراط في الرحمة
<ul style="list-style-type: none"> ● تغليب جانب الاحتياط والمنع في المسائل الاجتهادية المترددة بين التحريم والإباحة. 	تضخم الضمير

(١) انظر: ما تحت الأقنعة ص ١٨٧-١٨٨.

● المداهنة والتقصير في بيان الحق والسكوت عن إنكار المنكر.	الشخصية المستسلمة
● إخضاع الآخرين للرأي. ● الحدة في الخلاف. ● العجلة في تنفيذ الرأي. ● الاستغراق في التفاصيل.	المبالغة في الحرص والدقة والانضباط
● الميل إلى أحد الطرفين في الأحكام، وغياب الأحكام المتوسطة أو التفصيلية.	التفكير الحدي

ومن مشاهد تأثير الطبيعة الشخصية المنحرفة في السلوك الديني حال الخوارج الأولى، ف«يمكننا أن نلاحظ أيضاً أن مذهب الخوارج كان مصبوغاً في أصل نشأته بالصبغة البدوية في محاسنها ومساوئها، والناظر في صفات الخوارج وطبيعة شخصيتهم يجدهم كثيري الاختلاف على الأمراء، كثيري التفرق شيعاً وأحزاباً، محدودي النظر، ضيقي الفكر في نظرهم إلى مخالفيهم، وهم مع ذلك شجعان لا يهابون شيئاً، صرحاء في أقوالهم وأعمالهم، وأسهل شيء عليهم أن يبيعوا نفوسهم لعقيدتهم، ويهزؤون بما يقوله الشيعة من تقية، ويحتقرون من باعوا آراءهم وضمائرهم للخلفاء طمعا في المال والجاه»^(١).

(١) أثر الخصائص الشخصية على ظهور الاتجاهات الفكرية ص ٩-١٠.

الفرع الثاني: وصف الطبيعة المعتدلة التي ينبغي أن يتصف بها الفقيه:

لعل (الاعتدال) هو أوجز ما توصف به الشخصية السوية المهيأة للصواب في نظرها واجتهادها وبحثها، وذلك ما يجعلها أحسن وأسلم من الجنوح إلى طرف الإفراط أو التفريط، وإلى مكانة صفة (الاعتدال) وضبطها لجميع الصفات يُنبّه ابن القيم بقوله:

«حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل... والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط...»

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبنائها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب... وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة...

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما^(١).

وبهذا الاعتدال يكون الفقيه وسطاً بين الأطراف المذمومة، فيكون معتدلاً في الاستدلال بين طرف الإفراط في رعاية الألفاظ والتمسك بظاهرها، وطرف اجتهاد الرأي والأخذ بالقياس والاستحسان والتقصير في معرفة النصوص والاستدلال بها.

ووسطاً في الفتوى بين طرفي التشديد الغالي والترخص الجافي.

ووسطاً بين المغالاة في التقليد والتعصب للمذهب، وطرف إهدار فقه العلماء والجرأة على الاجتهاد بلا تأهل.

(١) مدارج السالكين (٢/٢٩٤-٢٩٦)، وانظر: إحياء علوم الدين (٥/١٩٣).

والباحثون النفسيون يُعَوّنون بتحديد صفات الشخصية المتّزنة^(١)، وقد اجتهد بعض الباحثين النفسيين المسلمين في وضع أطر عامة للشخصية السوية، منطلقين من المنطلق التربوي الإسلامي، ومن تلك الأطر ما يلي:

- ١ - التوازن في إجابة مطالب الجسد والروح، والعبادات والماديات، وبين حاجات الدنيا والآخرة.
- ٢ - الفطرية، وتعني: انسجام السلوك مع السنن الفطرية التي فطر الله الخلق عليها.
- ٣ - الوسطية، وهي خيرية السلوك وفضيلته والتوازن في أدائه بين الإفراط والتفريط.
- ٤ - الاجتماعية، وهي قدرة الشخص على إقامة علاقات إنسانية في الوسط الاجتماعي الذي هو فيه.
- ٥ - الصدق، وذلك بالصدق مع الذات، ومع الناس، وتطابق ظاهر الإنسان وباطنه.
- ٦ - الإنتاجية، وهي اتجاه الإنسان إلى الإنتاج وتحمل المسؤولية في حدود قدرته^(٢).

واقترح الدكتور فرج طه معياراً للشخصية السوية يشمل عدة أبعاد، أهمها:

- ١ - القدرة على الفهم الصائب للنفس وللآخرين.

(١) انظر: سيكولوجيا الشخصية ص ٨٨-٩١.

(٢) انظر: ما تحت الأتعة ص ٦٩.

- ٢ - الإدراك السليم للواقع ومعرفة عناصره.
- ٣ - الخلو من التخلف العقلي وما يتصل به من قصور في القدرات العقلية.
- ٤ - والقدرة على ضبط النفس والتحكم في الانفعالات والأهواء الشخصية.
- ٥ - القدرة على الحب والتعاون والإيثار.
- ٦ - الطموح المناسب للشخصية، والأهداف الواقعية في الحياة.
- ٧ - القدرة على العمل المنتج البناء.
- ٨ - الجدية والقدرة على تحمل المسؤولية.
- ٩ - القدرة على تحمل الإحباطات والصدمات.
- ١٠ - هدوء الشخصية واطمئنانها وإحساسها بالراحة النفسية.
- ١١ - تبني القيم الخيرة.
- ١٢ - الاستمتاع بالصحة النفسية^(١).

الفرع الثالث: موقف المتفقه من الأخلاق الخارجة عن الاعتدال:

لما كان الفقه عملا عقليا يستدعي طبيعة سوية مهياة للنظر السديد الراشد، ولما كان الإنسان مجبولا على النقص، فلا يخلو - مهما بلغ في الرشد والحكمة - من انحراف في الخلق وقصور في الرأي واستجابة

(١) انظر: ما تحت الأتعة ص ٧٠.

لهوى، لما كان هذا وذاك، كان من المهم لمبتغي الرسوخ والملكة الفقهية أن يقف الموقف الصحيح من جوانب القصور في طبيعته، وهذا ما ستبحثه هذه المسائل الخمس:

المسألة الأولى: الصفات الشخصية بين الثبات وقابلية التغيير.

المسألة الثانية: الشريعة لا تأمر إلا بالممكن.

المسألة الثالثة: الموقف من الصفات القابلة للتغيير.

المسألة الرابعة: الموقف من الصفات الثابتة.

المسألة الخامسة: إذا وقع الخطأ بعد الاجتهاد فصاحبه مثاب وخطؤه مغفور.

المسألة الأولى: الصفات الشخصية بين الثبات وقابلية التغيير:

لقد دلت الأدلة المتعددة على أن في الصفات الإنسانية قدراً قابلاً للتغيير، متأثراً بعوامل الإصلاح والإفساد، وأن فيها إلى ذلك قدراً ثابتاً غير قابل للتغيير، عميق الجذور في تكوين النفس، يتعذر تحويله أو يتعسر.

فأما النوع الأول فالأدلة على وجوده كثيرة جداً، من أبرزها: النصوص القرآنية والنبوية الحاتّة على محاسن الأخلاق ومكارم الشيم، فإن ذلك الحث يستلزم قابلية النفس للتهذيب والإصلاح، واستعدادها للتغيير، إذ لو لم تكن كذلك لكان أمرها بحسن الخلق أمراً بما لا يستطاع، وذلك مما لا يجيء به الشرع^(١).

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٥/١٩٩-٢٠٠)، الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/٤٢-٥٠،

ومن ذلك: قوله عزوجل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾^(١)، فهذه الآية الكريمة صريحة بأن في النفس استعداداً للفجور وللتقوى، قال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر^(٢). وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها^(٣).

ولكن الإنسان لا يجازى بمجرد ذلك الاستعداد حتى يُخرجه إلى الوجود بتزكية النفس أو تدسيته.

والحس أيضاً من الشواهد، فمن المعلوم لدى الخاص والعام أن كثيراً من خلائق الإنسان وصفاته تتغير بأسباب كثيرة، كالتربية والتعليم والتدين والمخالطة وغير ذلك.

بل المشاهدة تدلّ على أن الحيوان البهيم قابل للتربية وتغيير الخلق، كما هو مشاهد في تدريب الجوارح على الصيد، وتدريب الفرس على الانقياد^(٤).

فالأخلاق نوعان:

● أخلاق فطرية: تظهر في الإنسان منذ بدء حياته وأول نشأته.

● وأخلاق مكتسبة:

من البيئة الطبيعية، أو البيئة الاجتماعية، أو من توالي الخبرات والتجارب وغير ذلك، ولكن لا بد لاكتساب الأخلاق من وجود

(١) سورة الشمس، الآيات (٧-١٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٤١٢).

(٣) تفسير ابن جرير (٢٤/٤٤٢).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٥/٢٠٠).

الاستعداد الفطري لاكتسابها، وشأن الأخلاق في هذا كشأن المهارات الحركية والعضلية، فالعضو الذي لديه استعداد وقابلية فطرية لاكتساب مهارة من المهارات يمكن أن يغدو بالتدريب والتعليم مكتسبا لهذه المهارة، أما العضو الذي ليس لديه هذا الاستعداد فإن تدريبه وتعليمه لا يجدي شيئا^(١).

وهذا هو النوع الآخر، وهو القدر الثابت من الطبيعة غير القابل للتغيير، ومن أدلته قول النبي ﷺ «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(٢).

فتشبيه الناس بالمعادن يتضمن الكشف عما تشتمل عليه أخلاقهم وشخصياتهم من سمات ثابتة كثبات صفات المعادن فيها، ويتضمن أيضاً: أن استعداداتهم للارتقاء والتزكية والتهديب والإصلاح متفاوتة تبعاً لذلك.

وفي حديث أصرح في هذا المعنى يقول ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب»^(٣).

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/١٩٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِطِينَ﴾، برقم (٣٣٨٣)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، برقم (٢٥٢٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد في مسنده، برقم (١٨٥٨٢)، ورواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٦٩٣)، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، برقم (٢٩٥٥)، عن أبي موسى رضي الله عنه، وصححه الترمذي.

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم» (١).

وعلماء النفس مقرّون بوجود العنصرين (الثبات والتغير) في الصفات الشخصية، وإن تفاوتت نتائج بحوثهم التجريبية في تحديد مدى نفوذ كل عنصر منهما (٢)، ويُشبهه بعضهم الشخصية بما فيها من ثبات وتغير بالطريق المتّجه إلى الشمال -مثلاً-، فهو وإن تعرج يمينا أو شمالا وارتفاعا وانخفاضا، أو عرض له ما يجعله يضيق أو يتسع فإنه يظل هو الطريق ذاته، ويظل قاصداً نحو وجهته (٣).

والغزالي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب مثلاً آخر، وذلك بنواة التمر، فنواة التمر ليست نخلة ولا تفاحة، لكنها إن رُعيت فوُضعت في التراب وسُقيت خرج منها نخلة، لكنها لو رُعيت كل الرعاية لم يخرج منها تفاحة، فذلك مثل خُلُق المرء: الرعاية والتربية تُخرج منه ما هو مستعد وقابل له، لكنها لا تجاوز ذلك إلى إخراج صفات لم يُخلق فيه الاستعداد لها (٤).

المسألة الثانية: الشريعة لا تأمر إلا بالممكن:

إذا تقرر اشتمال الطبيعة الإنسانية على المادتين: المتغيرة والثابتة، فإن خطاب الشرع بتهديب الأخلاق جار وفق القاعدة الشرعية الكبرى

(١) رواه أحمد في مسنده، برقم (٣٦٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٥٩٩)، عن

عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحح الدارقطني وفقه. انظر: علل الدارقطني (٥/٢٦٩).

(٢) انظر: سيكولوجيا الشخصية ص ٢٦٥-٢٧٥، علم نفس الشخصية ص ٥٥.

(٣) انظر: سيكولوجيا الشخصية ص ٢٧٥.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٥/٢٠٠).

الشاملة لجميع الأوامر الشرعية، وهي التي أوضحها القرآن في قول الله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

فمسؤولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته فليس عليه مسؤولية نحوه.

يُضاف إلى ذلك: أن نسبة المسؤولية تتناسب طردياً وعكساً مع مقدار الاستطاعة، فالقوي يأتي امتحانه على نسبة قوته، وكذلك الضعيف، وامتحان الذكي على مقدار ما منحه الله من ذكاء، وامتحان الغبي على قدر فهمه أيضاً^(٢).

وعلى هذا الأساس يُفهم الأمر بإصلاح الخلق، وعلى هذا يتوجه الأمر إلى المتفقه بتهديب نفسه وتقويم خلقه، فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل ولو في حدود نسب جزئية لدخوله تحت سلطان إرادة الإنسان وقدرته كان خاضعاً للمسؤولية وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلاً للتعديل لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته فهو غير داخل في الأمر بتحسين الخلق^(٣)، ولكن قد يتوجه إليه الأمر والنهي من وجه آخر داخل في حدود القدرة والاستطاعة، مما سيتبين -إن شاء الله- في المسألة الرابعة.

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/١٩٠).

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/١٩١).

المسألة الثالثة: الموقف من الصفات القابلة للتغيير:

في الطبيعة الإنسانية مجال فسيح قابل للتغيير، وفي هذا المجال تجري التزكية والتأديب والتخلُّق.

وخير ما يُقوِّم به المتفقُّه وكلُّ مسلمٍ خُلِقَ: تزكية النفس بمواعظ الوحي من الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

و(الحكمة) هي: سنة رسول الله ﷺ، قاله: الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك^(٢) والشافعي^(٣) وغيرهم.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذه الثلاث في أربعة مواضع^(٤): بين تزكية النفوس، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، وبين أن مصدرها هو الرسول الذي يتلو آيات الله، ولا شك أن نتيجة هذه الثلاث هي صلاح القلوب والأعمال، وتزكية الأخلاق، واستقامة الباطن والظاهر،

(١) سورة آل عمران، الآية (١٦٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٤٤٥).

(٣) انظر: الرسالة ص ٣٢، ٧٨، وقال ﷺ: «سمعت من أَرْضِي من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله. وهذا يشبه ما قال والله أعلم؛ لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة، وذكر الله منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة؛ فلم يجز -والله أعلم- أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله» ص ٧٨.

(٤) وهي: الموضع المذكور في آل عمران، وفي البقرة موضعان، الآية (١٢٩) و(١٥١)، وفي سورة الجمعة، الآية (٢).

وإصابة العدل، ووضع الأمور في مواضعها، وفي هذا كلُّ الفلاح والهداية والاعتدال.

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتَّابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾^(١)، فجعل تعليمهم للكتاب ودراستهم تقتضي أن يكونوا ربانيين، والربانيون - كما قال ابن عباس وأبورزين وغير واحد -: أي حكماء علماء حلماء، وقال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة وعطاء الخراساني وعطية العوفي والربيع بن أنس: فقهاء، وعن الحسن أيضاً: يعني أهل عبادة وأهل تقوى، وقال الضحاك في قوله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتَّابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً^(٢).

ومن الملحوظ في تعاليم القرآن وأحكامه: أنها لا تجيء أوامر ونواهي مجردة، بل تجيء غالباً مقترنة بالتعريف بصفات الرب - سبحانه - وأسمائه، أو التنبيه إلى شيء من الحكمة في شرعه، أو مقترنة بالترغيب في ثوابه، أو الترهيب من عقابه، فيكون في هذا الاقتران من تربية النفوس - مع تنوع طبائعها وأخلاقها - على حسن الامتثال والاستقامة والأمانة ما لا يكون لو جاءت خالية من ذلك الاقتران.

وربما اقترن بها: التأكيد على وجوب الامتثال وإن خالف طبيعة النفس ورأيها، كقوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٣)، فأكد الأمر بجلد الزاني بالنهي عن أن تحول دونه الرأفة به، وذلك ما قد تميل إليه الطباع الرقيقة المحبة للعفو.

(١) سورة آل عمران، الآية (٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٦٦).

(٣) سورة النور، الآية (٢).

وأثار الطبيعة الشخصية تبدو وتكثر عندما تتسع مساحة اجتهاد الرأي، وتقل أو تزول عندما تضيق مساحة الاجتهاد، وذلك عند وجود النصوص الصريحة، وهذا يعني أنه بقدر قرب المرء من الوحي علماً واستمداداً يكون أقرب إلى الصواب، وبقدر بعده تزداد حاجته إلى اجتهاد الرأي، فيزداد تبعاً لذلك تعرض رأيه للتأثر بصفاته الجبليّة؛ ولهذا قال مالك رحمته الله: ما قلت الآثار في قوم إلا كثرت فيهم الأهواء^(١).

المسألة الرابعة: الموقف من الصفات الثابتة:

إذا ثبت أن من الصفات الإنسانية قدراً ثابتاً غير قابل للتعديل، فإن الشريعة الإسلامية الحكيمة لا تدعو إلى مغالبتها وتحديده، كيف وهي الشريعة الصادرة ممن ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(٢)، وأمره وخلقه سبحانه لا يتعارضان، ولكن ذلك لا يعني الاستسلام لأسباب الانحراف والجور، بل إن هناك وسائل وطرقاً أرشد إليها الشارع الحكيم تجعل الفقيه والمجتهد في مأمن

فمن ذلك:

● مجاهدة النفس على الاستقامة وإن خالف ذلك طبيعة النفس

المنحرفة:

إذا كانت إزالة الأخلاق السيئة واقتلاعها من النفس أمراً متعذراً، فإن من الممكن تجنب الأسباب التي تثير تلك الأخلاق، ومن الممكن

(١) الفقيه والمتفقه (١/٣٨٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٥٤).

أيضاً مجاهدة النفس على ترك الاستجابة لما تدعو إليه تلك الأخلاق من سلوك جائر.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني. قال: «لا تغضب»، فردد مراراً، قال: «لا تغضب»^(١).

قال العلماء: إن الغضب أمر ضروري لا يزول من الجبلة؛ فلا يأتي النهي عنه، وإنما حقيقة قوله «لا تغضب» الأمر بما هو مقدور للإنسان، والنهي عما هو مقدور له، وذلك أمران:

أحدهما: الأمر بالأخذ بأسباب تهذيب خلق الغضب وتعديله، وذلك بتمرين النفس على الحلم وحسن الخلق وكظم الغيظ والصفح والعفو، فمن درّب نفسه على ذلك كان مالكاً لغضبه، فلا يغضب غضباً يُخرجه إلى البغي.

والآخر: النهي عن العمل بمقتضى الغضب إذا حصل، بأن يجاهد نفسه على ترك إنفاذه والعمل بما يأمر به، فبذلك يندفع شر الغضب، وإن كان نفس الغضب باقياً^(٢).

قالوا: وهذه قاعدة في كل ما جاء الأمر به أو النهي عنه وهو غير مقدور للمكلف، فإن الخطاب إنما يتوجه حقيقة إلى سببه أو إلى أثره ونتيجته، أي أن الأمر يتوجه إلى الأخذ بأسباب حصوله إن كان مأموراً

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، برقم (٦١١٦)،

عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: فتح الباري (٥٢٠/١٠)، جامع العلوم والحكم (٣٦٤/١)، بهجة قلوب الأبرار

ص ٢٠٧، الفروق (٣٦/٢)، قواعد التفسير (٧٨٤-٧٨٧).

به، أو تجنب أسباب وقوعه إن كان منهيًا عنه، ويتوجه النهي إلى ثمرته ونتيجته، كالنهي عن الغضب -الذي لا يمكن الانفكاك عنه- هو نهى عن تنفيذ أثره، الذي هو البغي والعدوان ونحو ذلك^(١).

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾^(٢)، والرأفة في نفس صاحبها صفة لا تزول، ولكن النهي عنها هنا نهى عن ثمرتها، التي هي تعطيل الحد أو النقص منه^(٣).

وكذا قوله تعالى ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾^(٤)، والظن -ولا سيما لمن يغلب عليه سوء الظن- أمر يهجم على النفس بلا اختيار، لكن النهي عنه نهى عن الأسباب المهيجة له، ونهى عن إنفاذ آثاره.

● الاستشارة:

فهي أدب قرآني، ولا سيما للأmir والقاضي والمفتي^(٥)، قال الشعبي رضي الله عنه: من سره أن يأخذ بالوثيقة من القضاء فليأخذ بقضاء عمر، فإنه كان يستشير^(٦).

ومن فوائد المشاورة: أن يستشير المرء من يخالفه في الطبيعة، فيكون في استشارته تعديل لطبيعته، ومن لطيف صور ذلك ما وقع في اختيار الشيخين أبي بكر وعمر لعمّالهما، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(١) انظر: الفروق (٣٦/٢)، قواعد التفسير (٧٨٤/٢).

(٢) سورة النور، الآية (٢).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير، الفروق (٣٦/٢).

(٤) سورة الحجرات، الآية (١٢).

(٥) انظر: الفتوى في الشريعة الإسلامية (١٤٢/١).

(٦) فتح الباري (١٤٩/١٣).

«كان من كمال أبي بكر رضي الله عنه أن يولي الشديد ويستعين به ليعتدل أمره، ويخلط الشدة باللين، فإن مجرد اللين يفسد، ومجرد الشدة تفسد... فكان يستعين باستشارة عمر وباستنابة خالد ونحو ذلك، وهذا من كماله الذي صار به خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وأما عمر رضي الله عنه فكان شديداً في نفسه، فكان من كماله استعانته باللين ليعتدل أمره، فكان يستعين بأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيد الثقفي، والنعمان بن مقرن، وسعيد بن عامر، وأمثال هؤلاء^(١).

● وضع النفس في الموضع الذي تصلح له :

اتصاف المرء بالفقه لا يستلزم صلاحيته لكل منصب ديني، فمن الحكمة أن يضع المرء نفسه حيث يصلح.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعمل كل رجل من أصحابه فيما يصلح له، وكان أبو ذر رضي الله عنه أحد الفقهاء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يفتي في زمن أبي بكر وعمر وعثمان^(٢)، وكان رجلاً جريئاً قوياً في بدنه، صلباً في الحق، ومع ذلك أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: «يا أبا ذر! إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي؛ لا تأمرنّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم»^(٣).

قال الذهبي رحمته الله: «هذا محمول على ضعف الرأي؛ فإنه لو ولي مال

(١) منهاج السنة النبوية (٦/١٣٧)، وانظر: السياسة الشرعية ص ١٦.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٤٦، ٤٧، ٦٠).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، برقم (١٨٢٦)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

يتيم لأنفقه كله في سبيل الخير ولترك اليتيم فقيراً؛ فقد ذكرنا أنه كان لا يجيز ادخار النقدين^(١)، والذي يتأمر على الناس لا بد أن يكون فيه مداراة وحلم، وأبو ذر رضي الله عنه كانت فيه حدة^(٢).

فوجد هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُرشد أبا ذر إلى أن يتعاطى ما يُزيل هذا الضعف، بل أرشده إلى يتقبّل هذه الجبلّة التي جُبل عليها، فيتجنب تحمل الأمانات التي لا يصلح لتحملها.

● المعرفة بصفات النفس ومواطن القوة والضعف فيها:

لا يتأتى للإنسان تنمية ما لديه من استعداد للأخلاق الحسنة، وتهذيب ما يمكن تهذيبه من أخلاق منحرفة أو توقّي آثار ما هو راسخ من تلك الأخلاق، ولا يتم له أيضاً وضع نفسه في المواضع التي يُحسن فيها، وتجنب المواقف التي لا يصلح لها، ذلك كله لا يتم ما لم يكن المرء ذا معرفة جيدة بصفاته وخصائص شخصيته ومواطن القوة والنبيل، ومواطن الضعف والقصور فيها.

ولذا كان من المهم لكل عاقل ولطالب الرسوخ في الفقه خاصة أن يهتم بمعرفة نفسه معرفة دقيقة؛ ليعرف أين يضع نفسه، وليعرف مداخل الشيطان عليه، وفي القرآن الكريم البيان الشافي لصفات النفس البشرية، وينتفع المرء أيضاً باستنصاح الناصحين من ذوي الخبرة والمعرفة به، كما يُستفاد أيضاً من الدراسات النفسية الحديثة التي بلغت مبلغاً متقدماً في التعرف على الشخصية وأنماطها ودوافع سلوكها

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٦٥-٧٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٧٥).

والمؤثرات فيها، وأسست على ذلك اختبارات شخصية تعطي قدراً لا بأس به من معرفة الإنسان بأخلاقه ودوافع تصرفاته.

المسألة الخامسة: إذا وقع الخطأ بعد الاجتهاد فصاحبه مثاب وخطؤه مغفور:

مهما بذل الفقيه جهده في تزكية نفسه والتحرز من الزلل الذي تقتضيه طبيعته المجبولة على النقص فسابقى لطبيعته وسجيته أثر في اجتهاده واختياره، وقد يقع من جرّاء ذلك في الخطأ، لكن هذا الخطأ إذا وقع بعد بذل الجهد في التحري والأخذ بأسباب الإصابة فهو خطأ مغفور، وصاحبه مع المغفرة مأجور، وهنا يأتي قول النبي ﷺ «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد»^(١).

المطلب الثالث: الرغبة في اكتساب الملكة الفقهية:

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: أثر وجود الرغبة في اكتساب الملكة الفقهية.

الفرع الثاني: شروط الرغبة الدافعة إلى اكتساب الملكة الفقهية.

الفرع الثالث: العمل عند ضعف الرغبة في طلب الفقه.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، برقم (٧٣٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، برقم (١٧١٦) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

الفرع الأول: أثر وجود الرغبة في اكتساب الملكة الفقهية:

لقد خلق الله تعالى الخلق وقسم بينهم أرزاقهم وأخلاقهم وقواهم، وتنوع رغبات الناس وميولهم نحو العلوم أحد صور هذه القسمة الربانية، وفي هذه القسمة من الحكمة تكميل الناس بعضهم بعضاً، وتعاونهم على تحصيل المطالب التي لا بد لقيام حياتهم منها، وذلك لا يكون لو اتفقت رغباتهم، وإن إقبال المرء على ما يجد نفسه مائلة إليه من العلم من خير ما يعينه على إتقانه والصبر على نصب طريقه، فالنفس إذا اشتتهت الشيء كانت أسمح في طلبه، وأنشط لالتماسه، وهي عند الشهوة أقبل للمعاني، وإذا كانت كذلك لم تدخر من قواها ولم تحبس من مكنونها شيئاً، وآثرت كد النظر على راحة الترك، ولذلك قيل: يجب على طالب العلم أن يبدأ منه بالمهم، وأن يختار من صنوفه ما هو أنشط له، وطبعه به أعنى؛ فإن القبول على قدر النشاط، والبلوغ على قدر العناية^(١).

كما أن إكراه النفس على ما لا ترغب فيه يجمع عليها عنتاً وقلة عائدة؛ فالقلب إذا أكره عمي^(٢)؛ ولذا راعى الفقهاء جانب الرغبة والميل النفسي في التوجه إلى طلب العلم أصلاً، وفي اختيار العلم الذي يختص به الإنسان منه، قال ابن حزم رحمته الله: «من مال بطبعه إلى علم ما وإن كان أدنى من غيره فلا يشغلها بسواه؛ فيكون كغارس النارجيل بالأندلس وكغارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا ينجب!»^(٣)،

(١) الحث على طلب العلم ص ٥٣.

(٢) عزاه في كنز العمال إلى ابن مسعود، في كتاب الوسوسة، للأذرعي (١/٣٩٨).

(٣) الأخلاق والسير ص ٨٩.

وعدّ الشيخ زكريا الأنصاري من شروط التعلم والتعليم: «أن يقصد العلم الذي يقبله طبعه؛ إذ ليس كل أحد يصلح لتعلم العلوم، ولا كل من يصلح لتعلمها يصلح لجميعها، بل كل ميسر لما خلق له»^(١).

وهذا ما يقرره علم النفس التربوي، حيث يعدّ (الدافعية) شرطاً أساسياً لتحقيق الهدف من عملية التعلّم^(٢)، والدافع: حالة داخلية في الكائن الحي تؤدي إلى استثارة السلوك واستمراره وتنظيمه وتوجيهه نحو هدف معين^(٣)، والدوافع نحو التعلم والإتقان متعددة، ويشير النفسيون إلى دوافع، منها: دافع الإنجاز (الرغبة في النجاح)، ودافع الانتساب (القبول الاجتماعي والتقدير)، ودافع الإثارة (حاجة الإنسان لوجود مثيرات جديدة)^(٤)، ودافع المعالجة (ميل الإنسان إلى معالجة مشكلات والبحث عن حلها)، ودافع المنافسة (حب السبق والتقدم على الآخرين)، والدافع المعرفي (حب البحث عن المجهول والاستمتاع بمعرفة الجديد)^(٥).

- (١) اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم ص ٥، وانظر: التعليم والإرشاد ص ٢٣٩، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٤٨).
- (٢) انظر: علم النفس التربوي لفؤاد أبو حطب وآمال صادق ص ٤٣٣، سيكولوجية المهارات ص ٩٥، علم النفس التربوي الأسس النظرية والتطبيقات العملية ص ٧٠، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٣١٢، تعليم التفكير ومهاراته ص ٢٨٠.
- (٣) علم النفس التربوي ص ٤٣٢.
- وانظر تعريفات أخرى في: سيكولوجية المهارات ص ٩٥، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٣٠٣، ما تحت الأقنعة ص ٢٥.
- (٤) وهو ما يظهر أثره في سلوك الإنسان إذا حُبس في مكان خالي من الأشياء والبشر، فيشعر بالضيق وعدم التركيز.
- (٥) انظر: علم النفس التربوي ص ٤٣٦-٤٤٧.

لذا نستطيع القول: إن وجود الرغبة الدافعة شرط لتحصيل ملكة الفقه، وأنه ينبغي لطالب العلم أن يُقبِلَ على العلم الذي تميل إليه نفسه، لأن ذلك أقرب إلى المهارة فيه.

الفرع الثاني: شروط الرغبة الدافعة إلى اكتساب الملكة الفقهية:

ليس كل رغبة في طلب علم الفقه كافية لأن تكون دافعا إلى بلوغ مستوى الملكة في هذا العلم، بل لهذه الرغبة صفات، من الجدير بطالب العلم أن يتعهدا من نفسه، وهي:

- الاعتدال.
- والاستمرار.
- والذاتية.

وذلك ما أطرقه في المسائل التالية:

المسألة الأولى: الاعتدال:

قد يبدو للمرء أن الرغبة في الطلب كلما كانت أقوى كان ذلك أقرب إلى البلوغ والتحصيل، ولكن الدراسات النفسية تفيد خلاف ذلك! فقد شُغل الباحثون سنوات طويلة ببحث العلاقة بين الدوافع والتعلم، وكان السؤال هو: هل زيادة الدوافع وقوتها تؤدي إلى زيادة درجات النجاح، وأجريت تجارب عديدة في ذلك، وثبت أن التعلم يصل إلى أفضل درجاته حين تكون الدوافع متوسطة.

وأن الدرجات المتطرفة من الدافعية زيادة أو نقصاً تؤدي إلى نوع

من التدهور والتعطيل في الأداء والتبليد الانفعالي وعدم الاهتمام بموضوع التعلم (عند نقص الدافعية)، وتؤدي إلى ضعف جسماني أو ظهور حالات انفعالية كالقلق عند زيادة الدافعية^(١).

وهذه النتيجة تُفسر ما جاءت به الشريعة من الحث على الرفق والاعتدال والقصد، كقول النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»^(٢)، وقوله ﷺ «من يُحرم الرفق يحرم الخير»^(٣)، وقوله ﷺ «القصد القصد تبلغوا»^(٤).

ولحاجة طالب العلم إلى الاعتدال في الرغبة في العلم؛ كرر العلماء -مع تحريضهم على الاجتهاد في الطلب- الوصية بالأناة والرفق؛ لأن الرغبة إذا أفرطت وقع صاحبها في الاستعجال ولم يصبر طول الطريق؛ فانقطع بذلك عن الطلب.

والاجتهاد في الطلب والرفق لا يتنافيان، بل يجتمعان إذا بذل الطالب غاية جهده، فلم يكسل ولم يتوان، دون أن يُضرب بحق من الحقوق اللازمة -كحق النفس وحق الأهل- ودون أن يستعجل الثمار قبل أوانها، فبهذا يستطيع الاستمرار في الطلب وبلوغ الغاية بإذن الله.

(١) انظر: علم النفس التربوي ص ٣٤٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين، باب إذا عرّض الذمي أو غيره بسبّ النبي ﷺ، برقم (٦٩٢٧)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، برقم (٢٥٩٣)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، برقم (٢٥٩٢)، عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، برقم (٦٤٦٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المسألة الثانية: الاستمرار:

فالرغبة الدافعة هي الرغبة المستمرة، ونشاط المرء يظل مستمراً مادام الدافع باقياً، فإذا تم إشباع الدافع توقف النشاط^(١)؛ ولذا فإن مما يُديم الدافعية إدراك الإنسان بأنه لا يزال في حاجة إلى المزيد من العلم، فبهذا يستمر في الارتقاء علماً وتحقيقاً، كما هو مشاهد في سيرة العلماء من استمرارهم في طلب العلم مع تقدم مرتبتهم فيه وتقدمهم في السن، بخلاف من ظن أنه بلغ الغاية فما الذي يدفعه إلى الاستمرار؟ كما قال سعيد بن جبير وعبدالله بن المبارك -رحمهما الله-: لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك العلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده كان أجهل ما يكون^(٢).

المسألة الثالثة: الذاتية:

الدافع الذاتي هو الرغبة الداخلية للإنسان في تحقيق غاية، وهذا النوع من الدوافع أخرى بالاستمرار إلى بلوغ الهدف من السلوك المدفوع إليه بدافع خارجي -كتحصيل الوجهة ونيل المال ومنافسة الأقران، فالدافع الخارجي قد يزول -بالإشباع، كتحصيل الوجهة مثلاً، أو تحوّل مركز الوجهة إلى معيار آخر سوى معيار العلم الشرعي- فيتحوّل النشاط تبعاً لذلك^(٣)؛ ولهذا فإن الإخلاص لله في طلب العلم من أبلغ أسباب الاستمرار في طلب العلم وتحصيله.

(١) انظر: سيكولوجية المهارات ص ٩٧.

(٢) كلمة سعيد بن جبير في تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٠، وكلمة عبدالله بن المبارك في:

المجالسة وجواهر العلم (٢/١٨٦).

(٣) انظر: التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٣١٢.

على أن الدافع قد يبدأ خارجياً ثم يعود دافعا ذاتيا، برسوخ قناعة الإنسان بصحة الهدف وأهميته^(١)، وهذا ما يعبر عنه جماعة من السلف بقولهم «طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله بعد فيه النية»، وقول بعضهم «طلبنا العلم لغير الله، فأبى العلم إلا أن يكون لله»^(٢)، ولهذا يوصي بعض العلماء المعلم ألا يدع تعليم الطالب لعدم خلوص نيته في الطلب؛ فإن النية قد تتحول، ولا سيما مع ما يتضمنه علم الشريعة من العلم والحكمة المزكية للنفوس^(٣).

الفرع الثالث: العمل عند ضعف الرغبة في طلب الفقه:

تبين مما سبق أن ضعف الرغبة في الطلب عائق دون التحصيل، وهذا يُلقى سؤالا هو: ما موقف المسلم الذي عرف فضل العلم والفقه، لكنه لا يجد في نفسه دافعا قويا للطلب؟

ويمكن إجمال الجواب عن هذا في موقفين مرتبين.

أولهما: ترغيب النفس وتشويقها وإثارة دوافعها.

والآخر: الموازنة بين مصلحة مراعاة حال النفس وإقبالها ومصلحة

حمل العلم.

وشرح ذلك في المسألتين الآتيتين.

(١) انظر: التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٣١٢.

(٢) رُوي هذا المعنى عن جماعة من السلف، فجاء عن مجاهد، رواه عنه الدارمي في سننه

(٣٧١/١) والبيهقي في المدخل ص ٣٢٧، ومعمربن راشد رواه عنه ابن عساكر في

تاريخ دمشق (٤١٧/٥٩)، وحبيب بن أبي ثابت رواه عنه الخطيب في الجامع (٢/

٢٦٧)، وسفيان الثوري رواه عنه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (١/١٨٣).

(٣) انظر: المجموع (٧٢/١)، تذكرة السامع والمتكلم ص ٨٦.

المسألة الأولى: ترغيب النفس وإثارة دوافعها:

من المهم التنبيه إلى أن فقد الرغبة الدافعة إلى طلب العلم ربما لا يكون لعدمها، بل لغياب المثير والمُنَبِّه لها، فإذا وجد ذلك المثير انطلقت الدوافع الكامنة وكان النجاح والتحصيل، فالأصل في الدافع أن يكون كامناً غير مشعور به حتى يجد من الشعور ما يُنشِطه ويُطلقه، فالمنبه والمثير -داخلياً كان أو خارجياً- هو ما يحيل الدافع من حالة الكمون إلى حالة النشاط^(١).

ولإثارة الدوافع الكامنة جاء الكتاب والسنة بأنواعٍ من المرغبات في الإيمان وعمل الخير والبر عموماً، وفي طلب العلم خصوصاً، واعتنى العلماء -رحمهم الله- بجمع ما ورد في نصوص الوحي من ذلك، واعتنوا بالترغيب في العلم بطرق متنوعة، تناسب تعدد الدوافع النفسية وتنوعها.

فمن الدوافع المثيرة للرغبة في طلب العلم:

- الرغبة في رضا الله تعالى بامتثال أمره بالعلم.
- الرغبة في نيل ثوابه العاجل والآجل فيه.
- ذوق لذة العلم وحلاوته، إما بمباشرة هذه اللذة، أو بالنظر في حال العلماء والتذاهم بالعلم.
- إدراك منافع العلم العاجلة والآجلة، ومعرفة شؤم الجهل وسوء عاقبته.
- علو الهمة وعزة النفس والأنفة من ذل الجهل.

(١) انظر: سيكولوجية المهارات ص ٩٥-٩٦.

المسألة الثانية: الموازنة بين مصلحة مراعاة حال النفس وإقبالها ومصلحة حمل العلم:

إذا لم يجد المرء من نفسه الانبعاث والنشاط في طلب العلم بعد محاولة إثارة دوافع النفس وإيقاظ عزميتها، فهل يقعد عن الطلب، وفي ذلك فوات فضيلة العلم العظيمة، أم يمضي في الطلب على كُره من نفسه؟

هذه صورة من صور تزاحم المصالح والمفاسد، والقاعدة العامة في ذلك: ترجيح أعظم الطرفين، مصلحة كان أو مفسدة؛ ولهذا يقال: ينبغي أن يجتهد المسلم في طلب غاية ما تسمح به نفسه من العلم، مع مداومة الأخذ بأسباب النشاط والرغبة في العلم. وأما ما وراء ذلك، فله منه أحد موقفين، بحسب الحال:

الموقف الأول: أن تكون الكفاية قد تحققت بقيام من يكفي للنهوض بأعباء الاجتهاد والإفتاء، وقام بطلب علم الفقه من يتأدى بهم فرض الكفاية في المستقبل، فيقال هنا: إن على المرء أن يأخذ من علم الفقه ما يتعين عليه علمه، ثم يصرف جهده وقوّته إلى أفضل ما يليق به من العلم والعمل الصالح.

الثاني: ألا تكون الكفاية قد سُدت، فلم يبق بأمر الفقه علماً وتعليماً وإفتاءً وطلباً من تُسد بهم حاجة المسلمين، فهنا: يجب على من كان قادراً أن يبذل نفسه لذلك، ولو لم يجد من نفسه الميل إليه والارتياح إلى طلبه.

وذلك أن طلب الملكة الفقهية -مع قيام من يكفي- حكمه

الاستحباب، وإذا كان مستحبا فإن الشريعة تراعي في المستحبات نشاط النفوس، وتنهى عن إكراهها والحمل عليها حين إدبارها؛ لما يؤدي إليه ذلك من النفرة واستثقال الطاعة، ومن شواهد ذلك قول النبي ﷺ «خذوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا»^(١).

أما إذا لم يتم بحمل الفقه من يكفي فإن عبء الواجب لا يزال على كواهل القادرين، والواجب يجب القيام به دون نظر إلى ميل النفس وشهوتها، ومفسدة نقص العلم ورفعته بموت حملته أعظم من مفسدة معاناة طلبه من غير ارتياح إليه، مع أن دفع هذه المفسدة الصغرى ممكن بالاستعانة بالله والصبر وذكر فضل العلم وغير ذلك.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه، برقم (٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، برقم (٧٨٢)، عن عائشة رضي الله عنها.